

القاهرة

هدية العدد ٢١٤، ١٨ مايو ٢٠٠٤



كل الأسماء

الجزء الثانى





جوزيه ساراماغو

ترجمة: صالح علماني



مجاناً مع جريدة القاهرة

القاهرة

رئيس مجلس الإدارة
فاروق عبد السلام

رئيس التحرير
صلاح عيسى

تصميم الغلاف : **محمد الغول**
م . جرافيك : **محمد شرف**

جريدة اسبوعية ثقافية عامة

تصدر كل ثلاثاء عن وزارة الثقافة
الإدارة والتحرير :
٩ ش حسن صبرى . الزمالك
القاهرة . جمهورية مصر العربية
هاتف : ٧٣٧٣٠٤١
فاكس : ٧٣٧٣٠١٨
E-mail: alkahera@idsc.net.eg

سلسلة شعبية تعيد إصدارها
دار المدى للثقافة والنشر

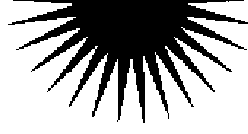
رئيس مجلس الادارة والتحرير
فخري كريم

الاشراف الفني
محمد سعيد الصكار

سورية - دمشق ص . ب : ٨١٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت- الحمراء- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
تلفاكس : ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
E-mail:almada112@yahoo.com



٢٨

جوزيه ساراماغو

كل الأسماء

الجزء الثاني

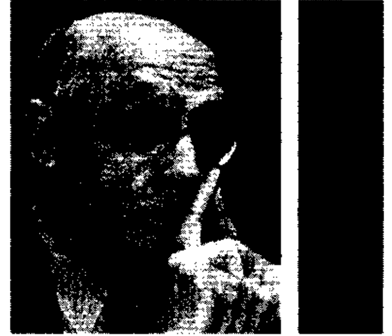
ترجمة
صالح علماني

تقديم
د. حامد أبو أحمد

طبعة خاصة
توزع مجاناً مع جريدة (القاهرة)

دار المدى للثقافة والنشر
٢٠٠٤

الطبعة الأولى
٢٠٠١



إنها انفلونزا ، قال الطبيب ، ثلاثة أيام من الراحة كبداية . وكان دون جوزيه قد نهض ، دائخاً ومتهالك الساقين ، ليفتح الباب ، اعذرني لأني جعلتك تنتظر يا سيدي الدكتور ، هذه هي نتيجة العيش وحيداً ، دخل الطبيب متذمراً ، يا للطقس المشؤوم ، أغلقَ المظلة التي تقطر ، وتركها عند المدخل ، قل لي مم تشكو ، سأله بينما كان دون جوزيه المرتجف يندس بين ملاءات السرير ، وأضاف دون أن ينتظر الرد على سؤاله قائلاً ، إنها الانفلونزا . قاس نبضه ، طلب منه أن يفتح فمه ، ووضع السماعة بسرعة على صدره وظهره ، وكرر ، إنها الانفلونزا ، وأنت محظوظ ، كان يمكن أن تكون ذات الرئة ، ولكنها انفلونزا ، ثلاثة أيام من الراحة كبداية ، وبعد ذلك سنرى . وكان قد جلس إلى المنضدة ليكتب الوصفة عندما فُتح باب الاتصال مع المحفوظات ، وكان مغلقاً دون إقفال ، وظهر منه المدير ، مساء الخير يا دكتور ، الأصح أن تقول مساء الشر أيها المدير ، فلو كان مساء خير ، لكنتُ جالساً في عيادتي مستريحاً ، بدلاً من الخروج إلى هذه الشوارع في هذا الجو التعس ، كيف حال مريضنا ، سأله المدير ، وردّ عليه الطبيب ، لقد منحته استراحة لثلاثة أيام ، إنها انفلونزا فقط . ولكنها لم تكن انفلونزا فقط في تلك اللحظة . فدون جوزيه ، المتدثر حتى أنفه ، كان يرتعش كما لو أنه يعاني نوبة

ملاريا ، إلى حد أن السرير الحديدي الذي يرقد عليه كان يهتز ، بالرغم من أن الارتعاش ، الذي لا يمكن كبحه ، لم يكن بسبب الحمى ، وإنما بسبب نوع من الرعب ، بسبب ارتباك شامل في الروح ، فقد كان يفكر ، الرئيس هنا ، الرئيس في بيتي ، وهو الرئيس الذي سأله ، كيف تشعر ، إنني أفضل حالاً يا سيدي ، هل تناولت الأقراص التي أرسلتها إليك ، أجل يا سيدي ، وهل أفادتك ، أجل يا سيدي ، ستتوقف الآن عن تناولها وتبدأ بتناول الأدوية التي وصفها لك الطبيب ، حاضر يا سيدي ، اللهم إلا إذا كان الدواء نفسه ، دعني أر ، أجل ، إنه الدواء نفسه ، إضافة إلى بعض الحقن ، سأتولى أنا أمر إحضارها . لم يكن دون جوزيه يصدق ما هو أمام عينيه ، وأن الشخص الذي يطوي الوصفة الطبية ويحفظها بعناية في جيبه هو فعلاً رئيس المحفوظات العامة . فالرئيس الذي تعلم معرفته بصعوبة لا يمكن له أن يتصرف بهذه الطريقة ، ولا أن يأتي شخصياً للاهتمام بحالته الصحية ، وأما إمكانية أن يكون هو نفسه راغباً في أن يتولى شراء أدوية كاتب بسيط فكان أمراً غير معقول . ستحتاج بعد ذلك إلى ممرض لزرق الحقن ، تذكر الطبيب الأمر تاركاً المعضلة لمن هو مستعد وقادر على حلها ، وليس للشيطان التعس المصاب بالانفلونزا ، الذي يرتجف من الهزال ، وذي اللحية الشائبة التي تبرز قليلاً ، وكما لو أن كل الشقاء المتبدي في البيت غير كاف ، لتضاف إليه تلك البقعة من الرطوبة في الأرضية التي يشير كل شيء إلى أن سببها هو عطل في التمديدات الصحية ، يا لأحزان الحياة التي يمكن للطبيب أن يرويها ، لولا اضطراره إلى الحفاظ على أسرار المهنة ، ولكنه أجهز على أفكاره بالقول ، ولكنني أمنعك من الخروج إلى الشارع وأنت في هذه الحالة ، فقال المدير ، أنا سأتولى أمر كل شيء يا دكتور ، سأتصل بممرض المحفوظات من أجل زرق الإبر ، وقال الطبيب ، لم يعد هناك مديرون كثيرون مثل حضرتك . هز دون جوزيه رأسه بحركة خفيفة ، وكان ذلك هو أقصى ما يستطيع

عمله ، إنه مطيع ومنضبط ، أجل ، وقد كان كذلك على الدوام ، وهو فخور إلى حد ما بأنه كذلك ، ولكنه ليس دنيئاً ولا ذليلاً ، وهو لن يتلفظ مطلقاً ، على سبيل المثال ، بتملقات بلهاء من نوع ، إنه أفضل رئيس للمحفوظات ، ليس هناك في العالم من هو أفضل منه ، لقد انكسر القالب بعد صنعه ، من أجله ، وعلى الرغم مما ينتابني من دوار ، لا أتورع عن تسلق ذلك السلّم اللعين . لدى دون جوزيه الآن قلق آخر ، جزع آخر ، إنه يتمنى أن ينصرف الرئيس ، أن ينسحب قبل الطبيب ، فهو يرتجف متخيلاً نفسه على انفراد مع المدير ، تحت رحمة أسئلته المحتومة ، ماذا تعني بقعة الرطوبة ، ما هي تلك البطاقات التي كانت على الكوميدينو ، من أين جئت بها ، أين خبأتها ، من هي صاحبة الصورة . أغمض عينيه، مضفياً على وجهه إمارات ألم لا يطاق ، وبدا كما لو أنه يتوسل ، دعوني بسلام في فراش آلامي ، ولكنه سرعان ما أعاد فتح عينيه ، مذعوراً ، حين قال الطبيب ، سأواصل جولتي على مرضاي ، اتصلوا بي إذا ما ساءت الحالة ، ويمكننا على أي حال أن نكون مطمئنين إلى حد ما ، فليس في الأمر نزلة رئوية ، سنبقيك على اطلاع على الوضع يا دكتور ، قال المدير ذلك وهو يرافق الطبيب . أعاد دون جوزيه إطباق عينيه ، وسمع إغلاق الباب ، فكر ، لقد أزفت الساعة . راحت خطوات الرئيس الثابتة تقترب ، إنها تتقدم باتجاه السرير ، توقفت ، إنه ينظر إليّ الآن ، ولم يدرِ دون جوزيه ما يمكنه أن يفعله ، يستطيع التظاهر بأنه قد غفا ، غفوة خفيفة كالتي ينامها مريض متعب ، ولكن ارتعاش رموشه سيفضح الزيف ، ويمكنه كذلك ، بصورة جيدة أو سيئة ، أن يتصنع حشرجة محزنة من حنجرته ، من تلك الحشرجات التي تمزق نياط القلب ، ولكن حالة انفلونزا عادية لا تسمح بكل ذلك ، ولا يمكن لهذه الخدعة أن تنطلي إلا على أبله ، وليس على هذا المدير الذي يعرف ملكوت كل ما هو مرئي وما هو غير مرئي في الألاعيب والنطنطات . فتح عينيه وكان هو هناك ، على بُعد

خطوتين عن السرير ، دون أية تعبيرات محددة على وجهه ، كان يتأمله ببساطة . عندئذ ظن دون جوزيه بأن الفكرة المنقذة قد واتته ، عليه أن يشكر الاهتمام الذي أحاطته به المحفوظات العامة ، شكر مرفق بامتداح ، بإطراء مفخم ، فربما يتمكن بهذه الطريقة من التملص من الأسئلة ، ولكنه في اللحظة التي كان يوشك أن يفتح فمه لكي يلفظ الجملة المعهودة ، لست أدري كيف أشكركم ، أدار الرئيس ظهره في الوقت الذي نطق فيه بكلمة ، كلمة بسيطة ، اعتن بنفسك ، كان ذلك ما قاله بنبرة فيها من التنازل بقدر ما فيها من إيقاع آمر ، وأفضل الرؤساء وحدهم يستطيعون الجمع بانسجام بين هذين الشعورين بالغي التنافر ، ولهذا السبب ينعمون باحترام وتوقير مرؤوسيهم . حاول دون جوزيه أن يقول ، على الأقل ، شكراً جزيلاً يا سيدي ، ولكن الرئيس كان قد خرج مغلقاً الباب وراءه بلطف ، مثلما يستدعي عمل ذلك في غرفة مريض . كان رأس دون جوزيه يؤلمه ، ولكن ذلك الألم لم يكن شيئاً يذكر إذا ما قارناه بالهيجان الذي يعتمل في داخله . فقد كان دون جوزيه في حالة من التشوش إلى حد أن أول حركة قام بها بعد خروج المدير هي دسّ يده تحت الفراش ليتأكد من أن البطاقات ما زالت هناك . ثم كانت حركته الثانية أشد إهانة للحس العام ، ذلك أنه نهض من السرير وأدار المفتاح دورتين في باب الاتصال بالمحفوظات ، مثل من يضع دعائم لباب بيته بعد أن تعرض البيت للسطو . أما العودة إلى الاضطجاع فكانت حركته الرابعة ، لأن الحركة الثالثة كانت في رجوعه نحو السرير مفكراً ، وماذا لو خطر للرئيس أن يعود ثانية ، في مثل هذه الحالة يقتضي التعقل ، من أجل تجنب الشكوك ، ترك الباب مغلقاً فقط . من المؤكد أنه إذا كان دون جوزيه يتلقى نسمة تلقين من جهة فإنه يتلقى ريحاً عاصفة من الجهة الأخرى .

عندما حضر الممرض كان الليل قد حلّ . وتنفيذاً للأوامر التي تلقاها

من المدير ،أحضر معه أقراص الدواء وأمبولات الحقن التي وصفها الطبيب ، كما أحضر معه فضلاً عن ذلك ، وهو ما فاجأ دون جوزيه ، لفافة وضعها بكل حذر على الطاولة قائلاً ، مايزال ساخناً ، وأرجو ألا أكون قد دلقت منه شيئاً ، وهو ما يعني أن اللفافة تحتوي على طعام ، وهذا ما أكدته كلمات الممرض التالية ، تناوله قبل أن يبرد ، ولكن علينا أن ننتهي من حقنتنا أولاً . لم يكن دون جوزيه يحب الحقن ، وخصوصاً في وريد الذراع ، حيث يضطر دائماً لأن يشيح ببصره ، ولهذا أحس بالرضى عندما قال له الممرض إن الوخزة ستكون في الألية ، هذا الممرض هو شخص مهذب ، من زمن آخر ،معتاد على استخدام لفظة أليتين بدلاً من كلمة ردفين كي لا يصدم وساوس السيدات ، وقد كاد أن ينتهي به الأمر إلى نسيان التسمية الدارجة ، فهو يستخدم كلمة أليه حتى عندما يتعامل مع مرضى لا تعدو كلمة ردف عندهم أن تكون تحفة لغوية قديمة ومضحكة ، ويفضلون عليها المرادف الفظ "الشائع على ألسنة الناس" . الظهور المفاجئ للطعام والإحساس بالراحة لأن وخز الحقنة لن يكون في الذراع ، قوضا دفاعات دون جوزيه ، فلم يتذكر ببساطة ، أو أنه لم يلاحظ ببساطة أكبر أن ساقي بيجامته ملطختان بالدم عند مستوى الركبتين ،نتيجة مآثره الليلية كمتسلق مدارس . وبدلاً من أن يقول له الممرض الذي كان يشهر الحقنة الجاهزة استدر ، سأله ، ما هذا ، فارتد دون جوزيه عندئذ بسبب هذا الدرس من الحياة إلى إدراك الصلاح الحاسم للحقن في الذراع ، وردّ بصورة غريزية ، لقد وقعتُ ،يا لسوء حظك يا رجل ، تقع أولاً ، ثم تصاب بالانفلونزا بعد ذلك ، لحسن الحظ أن لديك هذا المدير ، استدر الآن ، وبعد ذلك سنلقي نظرة على ركبتيك . لم يكن ينقص دون جوزيه ، في وهن الجسد والروح والإرادة ، وتشنجه حتى آخر عصب من أعصابه ، إلا القليل لينفجر بالبكاء مثل طفل عندما أحس بوخز الإبرة وبالتسلل البطيء للسائل في العضل ،

ففكر ، لقد تحوّلتُ إلى مجرد خرقة ، وكان ذلك صحيحاً ،فهو مجرد حيوان بشري بائس محموم ، مضطجع على سرير بائس في بيت بائس ، حيث توجد ملابس الجرم الوسخة المخبأة وبقعة رطوبة على الأرض تبدو أنها لن تجف مطلقاً .انقلب على ظهرك ، ولنر الآن هذه الجروح ، قال الممرض ذلك ، وقلب دون جوزيه جسده بمشقة ، منصاعاً ،وهو يئن ويسعل ، والآن ، بينما هو يميل برأسه إلى الأمام ، استطاع أن يرى كيف كان الممرض يشمر ساقي بنطال بيجامته بطيهما إلى ما فوق الركبتين ، وكيف كان يزيل لصقات الجروح المتسخة ، بسكب ماء الأكسجين عليها ونزعها شيئاً فشيئاً وبرفق شديد ، لحسن الحظ أنه ممرض محترف من الطراز الأول ، والحقيبة التي يحملها معه هي صيدلية كاملة للإسعافات الأولية ،فيها أدوية لكل شيء تقريباً .عندما انكشفت الجروح ، بدت على وجهه إمارات عدم تصديق التفسير الذي قدمه إليه دون جوزيه ، وتحدث فيه عن وقوعه ، ودفعته خبرته في الخدوش والكدمات إلى التعليق بفطنة غير واعية ، يبدو أنكَ كنتَ تحك ركبتيك بجدار يا رجل ، لقد قلتُ لك إنني وقعت ، هل أطلعت الرئيس على هذا ، ليس لهذا علاقة بالعمل ، ويمكن للمرء أن يتعثر دون أن يكون مضطراً إلى إبلاغ رؤسائه بذلك ، اللهم إلا إذا وجد الممرض ، الذي استدعي من أجل زرق حقنة ، نفسه مضطراً إلى إجراء علاج إضافي ، أنا لم أطلب ذلك ، أجل يا سيدي ، أنتَ لم تطلب ذلك في الواقع ، ولكنك إذا ما أُصبت غداً بالتهاب خطير بسبب هذه الجروح ، فمن الذي سيتحمل المسؤولية ، ويُتهم بالإهمال وانعدام الكفاءة المهنية ، إنه أنا ، أضف إلى ذلك أن الرئيس يحب أن يعرف كل شيء ، بالرغم من طريقته في التظاهر بأنه لا يكترث بأي شيء ، سأخبره بذلك غداً ، أنصحك بحرارة أن تفعل ، فهكذا يكون التقرير موثقاً ، أي تقرير تعني ، تقريري ، لا أرى أي ضرورة لذكر جروح بسيطة في تقرير ، بل هناك ضرورة لذكر أبسط الجروح ، ولكن جراحي ،

بعد أن تلتئم ، ستخلف ندوباً تافهة ، تختفي مع مرور الزمن ، أجل ، الجراح في الجسم تلتئم ، أما في التقرير فتبقى مفتوحة دائماً ، لا تلتئم ولا تختفي ، لستُ أفهم ما تعنيه ، منذ متى وأنت تعمل في المحفوظات العامة ، عما قريب سأكمل ستاً وعشرين سنة ، وكم رئيساً عاصرت حتى الآن ، ثلاثة ، بمن فيهم هذا الحالي ، يبدو أنك لم تلحظ شيئاً ، أي ملاحظة تعني ، ويبدو أنك لم تدرك شيئاً ، لستُ أفهم ما الذي تريد الوصول إليه ، هل صحيح أم غير صحيح أنه ليس لدى الرؤساء إلا قدر قليل من العمل ، بل صحيح ، والجميع يتحدثون عن ذلك ، اعلم إذن أن شغلهم الشاغل ، خلال ساعات الفراغ الطويلة التي ينعمون بها ، بينما الموظفون الآخرون يعملون ، هو جمع المعلومات عن المرؤوسين ، كل أنواع المعلومات ، وهم يفعلون ذلك منذ وُجدت المحفوظات العامة ، واحداً إثر الآخر منذ الأزل . لم تمر اختلاجة القشعريرة التي انتابت دون جوزيه مرور الكرام دون أن يلحظها الممرض الذي سأله ، هل انتابتكَ قشعريرة ، أجل ، أُصبتُ بقشعريرة ، لكي تكون لديكَ فكرة واضحة عما أقوله لك ، اعلم إذن أنني يجب أن أضمّن حتى هذه القشعريرة في تقريري ، ولكنك لن توردها ، لا ، لن أوردها ، وأُخمنُ السبب ، أخبرني به ، لأنه سيكون عليك أن تذكر بأن القشعريرة انتابتني بينما كنتَ تخبرني بأن الرؤساء يجمعون معلومات عن موظفي المحفوظات العامة ، وسيُلح الرئيس عندئذ على معرفة الظروف التي أدت إلى محادثتك معي ، وكيف تمكن ممرض من معرفة مسألة حصرية ، وحصرية جداً بحيث لم أسمع بشيء عنها خلال خمس وعشرين سنة من الخدمة في المحفوظات العامة ، هناك ميل كبير إلى البوح بالأسرار للممرضين ، ولكنه يبقى أقل مما هو للأطباء ، أتحاول أن تلمح إلى أن من عادة الرئيس البوح لك بالأسرار ، إنه لا يفعل ذلك ، ولستُ ألمح إلى أنه يفعل ، كل ما هنالك أنني أتلقى أوامر ، عليك إذن أن تنفذها وحسب ، أنت مخطئ ، يتوجب عليّ أن أفعل ما هو أكثر من

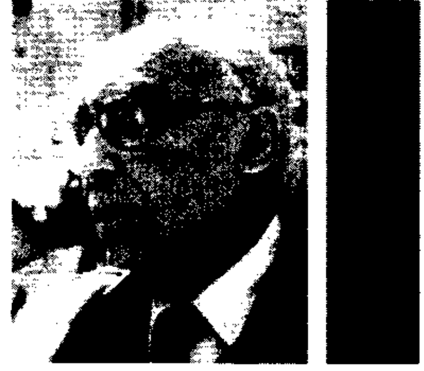
تنفيذها ، عليَ أن أفسرها ، لماذا ، لأن هناك اختلافاً بين ما يأمر به وما يرمي إليه ، إذا كان قد أمرك بالمجيء إلى هنا ، فقد فعل ذلك لكي تعطيني حقنة ، هذا هو الظاهر ، وما الذي رأيته في هذه الحالة ، فضلاً عن ظاهرها ، حضرتك لا تستطيع أن تتصور كمية الأشياء التي يمكن اكتشافها من خلال النظر إلى جرح ، رؤية هذه الجراح كان مصادفة محضة ، ولابد من أخذ المصادفات المحضة بعين الاعتبار على الدوام ، فهي تساعد كثيراً ، وما هي الأشياء التي اكتشفتها في جراحي ، أنك كنت تفرك ركبتيك بجدار ، بل إنني وقعت ، لقد قلتَ لي ذلك ، معلومة مثل هذه ، مع الافتراض بأنها صحيحة ، لن تكون ذات نفع كبير للرئيس ، ليس من اختصاصي أن تكون نافعة أو غير نافعة ، أنا أكتفي بملء التقارير ، لقد اطلع على إصابتي بالانفلونزا ، ولكنه لم يعلم بأمر الجراح في ركبتيك ، وهو لم يعلم كذلك بأمر بقعة الرطوبة تلك التي على الأرض ، ولكن ليس بأمر القشعريرة ، إذا كان لم يعد لديك ما تفعله هنا ، فأرجوك أن تنصرف ، إنني متعب وبحاجة إلى النوم ، عليك أن تتناول الطعام أولاً ، لا تنس ذلك ، وعسى ألا يكون عشاؤك قد برد تماماً بعد هذه المحادثة ، يمكن للجسد الممدد أن يتحمل الكثير من الجوع ، ولكنه لن يستطيع تحمل الجوع كله ، هل الرئيس هو الذي أمرك بجلب الطعام لي ، وهل تعرف شخصاً آخر يمكنه عمل ذلك ، أجل ، لو أنه يعرف أين أسكن ، ومن هو ذلك الشخص ، امرأة مسنة تعيش في طابق فوق أرضي ، جراح في الركبتين ، وقشعريرة مفاجئة وغامضة ، وامرأة مسنة في طابق فوق أرضي ، الشقة اليمنى ، سيكون هذا أهم تقرير في حياتي إذا ما قيض لي أن أكتبه ، ألن تكتبه ، بلى ، سأكتبه ، لأذكر فقط أنني زرقتك حقنة في إليتك اليسرى ، أشكرك على مداواة جراحي ، كان هذا هو أفضل ما تعلمته من كل ما لقنوني إياه .

بعد خروج الممرض ، بقي دون جوزيه مضطجعاً بضع دقائق أخرى دون حراك ، محاولاً استعادة هدوئه وقواه . لقد كان الحوار شاقاً ، تتخلله الشراك والأبواب الكاذبة المترصدة في كل خطوة ، وكان يمكن لأدنى زلة أن تجرجره إلى اعتراف كامل ، لو لم تكن روحه متيقظة للمعاني المتعددة

في الكلمات التي كان ينطق بها بترو وحذر ، وخصوصاً تلك التي تبدو وحيدة المعنى ، فلا بد من توخي الحذر في التعاطي معها . فالمعنى والمغزى ، على خلاف الاعتقاد السائد ، ليسا الشيء نفسه على الإطلاق ، فالمعنى يبقى هنا ، إنه مباشر ، حرفي ، صريح ، منغلق على نفسه ، ويمكن القول إنه أحادي المعنى ، بينما لا يمكن للمغزى أن يبقى ساكناً ، إنه يفور بمعان ثانية وثالثة ورابعة ، باتجاهات شعاعية تأخذ بالانقسام والتفرع إلى أغصان وأفرع إلى أن تغيب عن الأبصار ، مغزى كل كلمة هو أشبه بنجمة عندما تأخذ بإطلاق موجات حية عبر الفضاء ، وعبر الرياح الكونية، والاضطرابات المغناطيسية ، والكروب .

وأخيراً ،خرج دون جوزيه من السرير ، حشر قدميه في الخف ، ولبس الروب الذي ينفعه كبطانية احتياطية كذلك في الليالي الباردة . ومع أن الجوع كان يُثقل عليه ،فقد فتح الباب ليلقي نظرة على قاعة المحفوظات . أحس في داخلة بتمزق غريب ، بانطباع غياب ، وكأن أياماً طويلة قد انقضت منذ المرة الأخيرة التي كان فيها هناك . ومع ذلك ، لم يكن هناك أي تبدل ،فقد رأى منضدة الكونتوار الطويلة حيث ينجز طلبات أصحاب المعاملات والوقحين ،وتحتها ، الأدراج التي تُحفظ فيها بطاقات الأحياء ، ويلي ذلك طاولات الكتبة الثمانية ، فطاولات المأمورين الأربعة ، وطاولتا نائبي المدير ، ثم طاولة المدير الكبيرة وفوقها النور المضاء المتدلي من أعلى ، وبعد ذلك خزائن الرفوف الضخمة التي تعلو حتى السقف ، والظلمة الأحفورية في الجانب المخصص للأموات . وبالرغم من عدم وجود أحد في المحفوظات العامة ، فقد أقفل دون جوزيه الباب بالمفتاح . كان ألم ركبتيه قد استكان بفضل الضمادات الجديدة التي وضعها له الممرض ، وصار بإمكانه المشي بصورة أفضل ، لم يعد يشعر بتصلب في جراحه . جلس إلى المنضدة ، مزق اللفافة ، كان فيها وعاءان أحدهما فوق الآخر ، الذي في الأعلى فيه حساء ، والذي في الأسفل يحتوي على بطاطا ولحم ، وكان كل شيء ما يزال فاتراً . تناول الحساء أولاً بنهم ، وبعد ذلك ، دون تعجل ، أجهز على اللحم والبطاطا . ما ينجيني هو كون الرئيس على ما هو عليه ، غمغم بذلك وهو يتذكر كلمات

الممرض ، فلولاه لكنت أحتضر الآن من الجوع والهجران ، مثل كلب ضال . أجل ، هذا هو ما ينجيني ، كرر القول وكأنه بحاجة إلى إقناع نفسه بما قاله . وكان يشعر بالانتعاش عندما اندس في الفراش ، بعد أن مرّ على الركن الذي يستخدمه كحمام . وكان جاهزاً للاستسلام للحلم عندما تذكر دفتر الملاحظات الذي روى فيه خطواته الأولى في البحث . سأكتب غداً ،قال لنفسه ، ولكن هذا الأمر المستعجل الجديد كان ملحاً كالطعام ، ولهذا نهض ليبحث عن الدفتر . ثم جلس بعد ذلك في السرير ، وهو يرتدي البرنس ، ويزرر قميص البيجامة حتى عنقه ، ومتدثراً بالبطانيات ، واصل رواية القصة من النقطة التي توقف عندها . قال الرئيس ، أذا لم تكن مريضاً ، فكيف تفسر إذن أداءك السيئ في العمل خلال الأيام الأخيرة ، لستُ أدري يا سيدي ، ربما السبب هو أنني أنام بصورة سيئة. وبمساعدة الحمى ، واصل الكتابة حتى وقت متقدم من الفجر .



لم تكفه ثلاثة أيام ، وإنما احتاج دون جوزيه إلى أسبوع لكي يتخلص من الحمى ويهدأ سعاله . واظب الممرض على المجيء كل يوم من أجل إعطائه الحقنة وإحضار الطعام إليه ، وكان الطبيب يأتي يوماً ولا يأتي في اليوم الذي يليه ، ولكن هذه المثابرة الاستثنائية ، ونعني مثابرة الطبيب ، يجب ألا تقودنا إلى أحكام متعجلة حول الفعالية السائدة المفترضة للخدمات الصحية الرسمية والإسعاف المنزلي ، ذلك أنها كانت ، بكل بساطة ، نتيجة الأمر الصريح الذي أصدره رئيس المحفوظات العامة ،عالج لي هذا الرجل يا دكتور وكأنك تعالجني أنا بالذات ، إنه مهم . لم يتوصل الطبيب إلى معرفة صائبة لسبب هذه المعاملة التي يوصيه بها وتنم بوضوح عن تقديم الجميل ، خصوصاً وأن الرأي التقويمي الذي عبر عنه الرئيس يفتقر إلى الموضوعية ، لأن الطبيب يعرف بيته من خلال إحدى زياراته المهنية ،وطريقته المريحة والمتحضرة في العيش ، وعالم ذلك البيت الداخلي لا يشبه بأي حال الكوخ الفظ الذي يسكنه هذا المدعو دون جوزيه ذو الحلاقة السيئة ، والذي لا يملك كما يبدو ملاءات احتياطية للفراش . بلى ، إن دون جوزيه يملك ملاءات ، فهو ليس فقيراً إلى هذا الحد ، ولكنه رفض بجفاء ، لأسباب يعرفها هو وحده ، اقتراح الممرض عندما عرض عليه أن يسوي له الفراش ويستبدل الملاءات التي تعبق برائحة العرق والحمى ، أقل من خمس دقائق ، وسأجعل فراشك ندياً ، إنني على ما يرام

هكذا ، فلا تزعج نفسك ، ليس هناك أي إزعاج ، إنه جزء من عملي ، قلت لك إنني على ما يرام . لا يمكن لدون جوزيه أن يكشف أمام أي كان أنه يخبئ بين الفراش وسطح السرير البطاقات المدرسية لامرأة مجهولة ودفتر ملاحظات يتضمن قصة اقتحامه للمدرسة التي درست فيها في أيام طفولتها وصباها . يمكن لتخبئتها في مكان آخر ، بين ملفات قصاصات المشهورين مثلاً، أن يحل المعضلة فوراً ، ولكن الإحساس بأنه يذود عن سر ، بجسده بالذات ، كان قوياً ، بل ومبهجاً ، بحيث لا يمكن لدون جوزيه أن يتخلى عنه . ولكي لا يضطر إلى مناقشة الموضوع مرة أخرى مع الممرض ، أو مع الطبيب الذي كان قد وجه نظرة مؤنبة ، وإن لم يتفوه بأي تعليق ، إلى الملاءات المجعدة وقطب أنفه أمام الرائحة التي تفوح منها ، نهض دون جوزيه في إحدى الليالي ، مستجمعاً قوة من الوهن ، واستبدل الملاءات بنفسه . ولكي لا يجد الطبيب أو الممرض أدنى ذريعة للإلحاح على الموضوع ، أو لتقديم تقرير للمدير ، من يدري ، حول إهمال الكاتب المستعصي ، دخل إلى الحمام ، فحلق ذقنه ، واغتسل على أحسن وجه يستطيعه ، ثم أخرج من أحد الأدراج بيجامة قديمة ، ولكنها نظيفة ، واندس ثانية في الفراش . أحس بالرضى وباستعادة القوى إلى حد قرر معه ، كمن يلعب مع نفسه ، أن يدون في دفتر الملاحظات وصفاً تفصيلياً لكل التفاصيل ، تفاصيل النظافة والترتيب والعناية التي أنجزها للتو. إنها العافية التي تريد العودة إليه ، وهو ما لم يتأخر الطبيب في إعلانه للمدير ، لقد تعافى الرجل ، وسيكون بمقدوره بعد يومين آخرين أن يعود إلى العمل دون خطر التعرض لانتكاسة . واكتفى المدير بالقول ، حسن جداً، ولكنه قال ذلك بهيئة ساهية ، كما لو أنه يفكر في شيء آخر .

لقد شفي دون جوزيه ، ولكنه فقد الكثير من وزنه ، بالرغم من الخبز والغماس الذي كان يأتيه به الممرض بانتظام ، ومع أنه كان يفعل ذلك مرة واحدة في اليوم ، إلا أن الكمية كانت أكثر من كافية للقيام بأود جسد رجل راشد غير مطالب ببذل أي جهد . ولا بد من الأخذ في الاعتبار مع ذلك

التأثير المضني للحمى على الأنسجة الدهنية ،خصوصاً عندما لا تكون وفيرة من قبل ،مثلما هي الحالة التي لدينا .لم يكن من اللائق في أعراف المحفوظات العامة للسجل المدني إبداء الملاحظات ذات الطابع الشخصي ، وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالحالة الصحية ،ولهذا السبب لم يكن هزال دون جوزيه ومظهره المثير للشفقة محط أي تعليق من جانب زملائه الكتبة أو رؤسائه ، ونعني أي تعليق شفوي ، ذلك أن نظرات الجميع كانت بليغة بما يكفي للتعبير العام عن نوع من الشفقة المزدرية ، يمكن لأشخاص آخرين ، غير عارفين لعادات المكان ، أن يفسروها بصورة خاطئة على أنها نظرات تحفظ رصين وصامت . ولكي يبدي مدى قلقه من التغيب عن العمل عدة أيام ، كان دون جوزيه هو أول من وقف في الصباح أمام بوابة المحفوظات ، بانتظار مجيء نائب المدير الأحدث عهداً في المنصب ، وهو المكلف بفتح الباب ، كما أنه المكلف بإغلاقه مع انتهاء العمل في المساء . وكان المفتاح الأصلي ، وهو تحفة فنية من عمل نقاش باروكي قديم ورمز مادي للسلطة ، لا يعدو مفتاح نائب المدير أن يكون نسخة متقشفة وذليلة منه ، بحوزة المدير نفسه الذي لم يكن يستخدمه ، في الظاهر ، مطلقاً ،سواء بسبب وزنه وزخارفه المعقدة التي تجعل حمله غير ممكن ، أو لأنه لا بد للمدير ، وفق بروتوكول المراتب الوظيفية غير المكتوب ، إنما الساري منذ أزمنة موغلة في القِدم ، أن يكون آخر من يدخل المبنى . إن أحد الأسرار العجيبة التي تستحق التقصي فعلاً في حياة المحفوظات العامة ، لو لم تستغرق كل اهتمامنا قضية دون جوزيه والمرأة المجهولة ، هو كيف يتدبر الموظفون أمرهم ، على الرغم من الازدحامات المرورية التي تضيق بها المدينة ، من الوصول إلى العمل دوماً بالترتيب نفسه ، الكتبة أولاً ، دون تمييز في الأقدمية ، ثم نائب المدير الذي يفتح الباب ، وبعد ذلك المأمورون ، مع مراعاة الأقدمية ، ثم نائب المدير الأقدم عهداً في الخدمة ، وأخيراً المدير ، الذي يصل عندما يتوجب عليه الوصول ، دون أن يقدم تفسيراً لأحد . ولكن الحدث يبقى موثقاً على أي حال .

إحساس الشفقة المزدرية ، مثلما قيل من قبل ، الذي قوبلت به عودة دون جوزيه إلى العمل ، تواصل حتى دخول المدير ، بعد نصف ساعة من بدء العمل ، ليتبدل على الفور إلى إحساس بالحسد ، وهو أمر يمكن تفهمه في نهاية المطاف ، ولكنه لم يتبدَ لحسن الحظ في كلمات أو أفعال . وحيث أن النفس البشرية هي مثلما نعرفها ، ولا يمكننا التبجح بأننا نعرفها بالكامل ، فلا بد من الانتظار . لقد شاع في المحفوظات في تلك الأيام ، عبر بوابات جانبية ووشوشات في الزوايا ، خبر اهتمام الرئيس بطريقة غير معهودة بانفلونزا دون جوزيه ، ووصول الأمر به إلى إرسال الطعام إليه مع الممرض ، فضلاً عن الذهاب لزيارته في بيته مرة واحدة على الأقل ، وهي الزيارة التي قام بها في أثناء أوقات العمل ، وأمام الجميع ، وما لم يُعرف هو إذا ما كانت الزيارة قد تكررت . وهكذا يصير من السهل تصور استنكار العاملين الصامت ، دون تمييز في المراتب ، عندما توقف المدير بجانب دون جوزيه ، حتى قبل توجهه إلى مقعده ، وسأله عما إذا كان يشعر بأنه قد استرد عافيته تماماً . وقد كانت الفضيحة أكبر لأنها المرة الثانية التي يحدث فيها ذلك ، فالجميع يتذكرون تلك المناسبة الأخرى ، ليس منذ زمن طويل ، حين سأل الرئيس دون جوزيه عما إذا كان قد تحسن من الأرق ، وكأن أرق دون جوزيه هو مسألة حياة أو موت لانتظام سير العمل في المحفوظات العامة . وبينما هم يكادون ألا يصدقوا ما يسمعون ، شهد الموظفون محادثة ندٍ لند ، سخيفة بكل المقاييس ، كان دون جوزيه يقدم الشكر خلالها لطيبة الرئيس ، وبلغ به الأمر إلى حد الإشارة بصورة مكشوفة إلى الطعام ، وهو ما كان له بالضرورة ، في أجواء المحفوظات الصارمة ، وقع البذاءة ، وما يشبه الفحش ، وكان الرئيس يوضح أنه لم يكن بمقدوره تركه مهجوراً تحت رحمة القدر القاسي لمن يعيشون منفردين ، دون أن يكون هناك من يقدم له على الأقل فنجاناً من الحساء ، أو يسوي له ملاءة السرير ، وأعلن المدير بمهابة ، الوحدة لم تكن بالرفقة الطيبة قط يا دون جوزيه ، فالأحزان الكبيرة ، والإغواءات الكبيرة ، والأخطاء الكبيرة هي على

الدوام تقريباً نتيجة بقاء المرء وحيداً في الحياة ، دون صديق فطن يمكن طلب النصيحة منه عندما يحدث ما يعكر صفونا أكثر مما هو معهود في بقية الأيام ، فرد دون جوزيه ، أنا يا سيدي لا أظن أنني حزين بالمعنى المتعارف عليه لكلمة حزين ، ربما كانت طبيعتي كئيبة بعض الشيء ، ولكن هذا ليس نقيصة ، أما بالنسبة للإغواءات ، فيجب القول إنه لا يمكن لسني ولا لوضعي أن يسمحا لي بالميل إليها ، أعني أنني لا أسعى إليها ولا هي تسعى إليّ ،وماذا عن الأخطاء ، هل تعني يا سيدي الأخطاء في العمل ، إنني أعني الأخطاء عموماً ،أما أخطاء العمل ، لا بد أن تنتج عاجلاً أو آجلاً عن العمل ، والعمل هو الذي يحلها ، أنا لم أسيء إلى أحد قط ، بصورة واعية ومتعمدة على الأقل ، وهذا كل ما يمكنني قوله لك ، وماذا عن الأخطاء بحق نفسك ، لا بد أنني اقترفت الكثير منها ، وربما كان هذا هو السبب في كوني وحيداً ، لكي تقترف أخطاء أخرى ، أخطاء الوحدة فقط يا سيدي . كان دون جوزيه قد نهض ، مثلما يفرض عليه الواجب ، لدى اقتراب الرئيس ، وأحس فجأة بأن ساقيه تتراخيان ، وبأن موجة من العرق تُغرق جسده . شحب وجهه ، بينما كانت يداه تبحثان بجزع عن حافة الطاولة ، ولكن ذلك الاستناد لم يكن كافياً ، فاضطر دون جوزيه إلى الجلوس على الكرسي وهو يتلعثم ، اعذرني يا سيدي ، اعذرني . نظر إليه المدير بملامح لا يمكن سبر غورها استمرت لبضع ثوان ثم توجه إلى مكانه . استدعى نائب المدير المسؤول عن جناح دون جوزيه ، وأصدر إليه أمراً بصوت منخفض ، ثم أضاف ، بصوت مسموع ، دون المرور عبر المأمور ، وهو ما يعني أن التعليمات التي تلقاها نائب المدير للتو ، موجهة إلى أحد الكتبة ،ويتوجب عليه بالذات ، خلافاً للقواعد المتبعة ، أن يتولى تنفيذها .لقد حدث من قبل ، عندما أرسل المدير نائبه هذا نفسه ليحمل أقراص الدواء إلى دون جوزيه ، أن جرى خرق سلسلة المراتب الوظيفية، ولكن ذلك التجاوز كان بالإمكان تبريره بعدم الثقة في قدرة المأمور المعني على التنفيذ المُرضي للمهمة ، وهي لم تكن ترمي إلى حمل الأقراص المضادة

للأنفلونزا إلى المريض ، بقدر ما تهدف إلى إلقاء نظرة على البيت وإطلاع المدير على ذلك فيما بعد . ويمكن للمأمور أن يتقبل تماماً ، أجل يمكنه أن يتقبل تماماً ،التفسير الذي سيخطر له ، بسبب الطقس الشتوي السائد ، لمنشأ بقعة الرطوبة على الأرض ، وربما كان سيعود إلى المحفوظات راضياً عن نفسه بإنجاز واجبه ، دون أن ينتبه إلى البطاقات الموضوعة على الكوميدينو ، ليقول للرئيس ، كل شيء طبيعي . لا بد من القول مع ذلك ، بأن نائبي المدير ، وهذا منهما بصورة خاصة ،المتورط في العملية من خلال المشاركة الفعالة التي أستُدعي إليها ، يدركان بأن تصرف المدير محدد بهدف معين ، باستراتيجية ، بفكرة مركزية . لا يمكن لهما أن يتصورا فحوى تلك الفكرة وما هو الهدف منها ، ولكن تجربتهما ومعرفتهما بشخصية الرئيس تقول لهما إن كل كلماته وكل تصرفاته في هذه الواقعة تشير بصورة محتمة إلى نهاية ما ، وأن دون جوزيه الذي وُضع ، بإرادته أو بفعل ظروف المصادفة ، في الطريق ، هو أحد أمرين ، فإما أنه لا يعدو كونه أداة مفيدة دون وعي ، أو أنه ، هو نفسه ، قضية المدير المفاجئة ،وغير المتوقعة بأي حال من الأحوال . أحكام منطقية شديدة التعارض ، وأحاسيس بالغة التناقض ،جعلت الأمر الصادر ، من خلال النبرة التي نُقل بها إلى دون جوزيه ، يبدو أقرب بكثير إلى جميل يطلبه منه المدير مما هو إلى التعليمات الواضحة والحاسمة التي أصدرها بالفعل ، فقد قال نائب المدير ، يرى الرئيس يا دون جوزيه أن حالتك الصحية ليست جيدة إلى حدّ مجيئك إلى العمل ، نظراً للإغماء الذي ألم بك قبل قليل ، لم يكن إغماء ، ولم يبلغ الأمر حد فقداني الوعي ، بل هو مجرد دوار آني ،سواء أكان دواراً أم إغماء ، آنياً أم دائماً ،ما تريده المحفوظات العامة هو أن تستردَ عافيتك بالكامل ، سأعمل وأنا جالس بقدر ما أستطيع ، وخلال أيام قليلة سأكون كما في السابق ، يعتقد الرئيس بأنه من الأفضل أن تطلب إجازة لبضعة أيام ، ليس العشرين يوماً دفعة واحدة بالطبع ، ربما عشرة أيام ، عشرة أيام من الراحة ، مع تغذية جيدة ، واستراحة ، والقيام بنزهات قصيرة في المدينة ، فلديك الحدائق

والمتنزهات ، والوقت الذي تتفتح فيه الأزهار ، إنها نقاهة حقيقية ، وباختصار ، لن نستطيع التعرف عليك عندما تعود . نظر دون جوزيه مذهولاً إلى نائب المدير ، الحقيقة أنه لم يكن بالحوار الذي يدور مع موظف كاتب ، إنها خطبة تنم عن شيء من عدم الوقار . من الواضح أن الرئيس يريد منه أن ينصرف في إجازة ، وهو أمر بحد ذاته ينم عن مكيدة ، ولكنه يكشف في الوقت نفسه عن قلق فريد وغير مسبوق على صحته . لا شيء من هذا يتوافق مع أنماط السلوك المعهودة في المحفوظات العامة ، حيث تُحسب مخططات الإجازات بالمليمتر ، من أجل التوصل ، بعد موازنة عوامل لا حصر لها ، بعضها لا يعرفه أحد سوى الرئيس ، إلى توزيع عادل للوقت المخصص للإجازات السنوية . وإقدام المدير على تجاوز برنامج الإجازات المُعدّ للسنة الجارية ، وإرسال كاتب إلى بيته دون أخذ ورد ، هو أمر لم يُعرف له مثيل من قبل . كان دون جوزيه مضطرباً ، وبدا ذلك واضحاً على وجهه . لقد كان يشعر وراء ظهره بنظرات زملائه الحائرة ، ويلحظ نفاد صبر نائب المدير المتنامي حيال ما كان يبدو له تردداً لا مبرر له ، وكان على وشك أن يقول حاضر يا سيدي ، مثل من ينصاع ببساطة لأمر صادر إليه ، عندما أشرق وجهه بالكامل فجأة ، فقد انتبه للتو إلى ما يمكن أن تعنيه بالنسبة إليه عشرة أيام من الحرية ، عشرة أيام للتحري دون أن يكون مقيداً إلى عبودية ساعات العمل ، إلى أوقات الدوام ، أية حدائق وأية متنزهات ، وأية نقاهة ، فليتبارك من اخترع الانفلونزا ، وراح دون جوزيه يبتسم وهو يقول ، حاضر يا سيدي ، كان عليه أن يبدي مزيداً من الرصانة في التعبير ، فلا يمكن للمرء أن يعرف مطلقاً ما يمكن لنائب مدير أن يقوله للرئيس ، لقد تصرف ، في اعتقادي ، بطريقة غريبة ، فقد أوحى في البداية بأنه حائر ، أو أنه لم يفهم جيداً ما قلته له ، ثم بدا بعد ذلك مثل من حصل على الجائزة الكبرى في اليانصيب ، ولم يعد يبدو أنه الشخص نفسه ، هل تظن أنه يلعب ، لا أعتقد ذلك ، فقد كانت طريقة في الكلام ، لقد كان له هدف آخر إذن . وكان دون جوزيه يقول لنائب المدير ،

الواقع أن هذه الأيام تناسبني تماماً ، لا بد أن أشكر السيد المدير ، أنا سأنقل إليه شكرك ، ربما يتوجب علي أن أفعل ذلك شخصياً ، أنت تعرف جيداً أنها ليست العادة المعمول بها ، على الرغم من كل شيء ، ونظراً لاستثنائية الحالة ، بينما دون جوزيه ينطق بهذه الكلمات ،وهي ،بيروقراطياً ،الأكثر ملاءمة، التفت برأسه إلى حيث يجلس المدير ، ولم يكن يتوقع أن يراه ينظر إليه، وأقل من ذلك أن يكون قد أدرك فحوى الحديث برمته ، وهو ما أراد أن يؤكده بتلك الإيماءة الحازمة ، إنما الفاترة والمتعجرفة في الوقت نفسه ، من يده ، دعك من عبارات الشكر المضحكة ، قدم طلب الإجازة وانصرف .

كان أول ما اهتم به دون جوزيه عندما صار في البيت هو الملابس المخبأة في المخزن الذي يستخدمه كخزانة . إذا كانت تلك الملابس متسخة من قبل ،فقد تحولت الآن إلى قذارة كاملة ، تطلق رائحة نتنة مختلطة بأبخرة العفونة ، بل وكانت تظهر طبقة من الطحالب في ثنيات البنطال ، ويمكن تصوّر حزمة ملابس رطبة ،سترة ، قميص ، بنطال ، جوارب ، ملابس داخلية ، كلها ملفوفة بمعطف كان يقطر ماء آنذاك ، فكيف يمكن لكل هذا أن يكون بعد أسبوع .دسّ الثياب كومة واحدة في كيس بلاستيكي كبير ، وتأكد من أن البطاقات ودفتر الملاحظات ما زالت مخبأة بين الفراش وسطح السرير ، الدفتر عند الرأس ، والبطاقات تحت موضع القدمين ، وتأكد من أن باب الاتصال مع المحفوظات مقفل بالمفتاح ، وأخيراً ، منهوكاً إنما مطمئن الروح ، خرج للذهاب إلى مصبغة قريبة كان زبوناً لها ، وإن لم يكن من زبائنها المواظبين . لم تستطع المستخدمة ، أو أنها لم تشأ ،كبح نفسها من إبداء ملامح التأنيب عندما أفرغت وبعثرت محتويات الكيس فوق منضدة الكونتوار ، المعذرة ، إذا لم تكن هذه الملابس قد غمست في الطين فعلاً ،فإنها تبدو كذلك ، لقد أصبتِ تقريباً ،صمم دون جوزيه ، وهو مضطر إلى الكذب ، أن يفعل ذلك محترماً منطق الاحتمالات ، منذ أسبوعين ، بينما كنت أحمل هذه الملابس لتنظيفها ، تمزق الكيس وسقطت كلها على الأرض ، وكان ذلك في مكان موحل بسبب

الحفريات في الشارع ، وتتذكرين بأن المطر هطل بغزارة في تلك الأيام ، ولماذا لم تُحضر الملابس فوراً ،لأنني سقطت طريح الفراش مصاباً بالانفلونزا ،وكان الخروج من البيت مجازفة ،فقد أُصابُ بالتهاب رئوي ، سيكلفك تنظيف هذه الملابس سعراً أغلى بكثير ، لأننا سنضعها في الغسالة مرتين ،ليس أمامنا من مخرج ،وهذا البنطال ، انظر بأية حال تركتَ هذا البنطال ، لا أدري إذا ما كنت تريد حقاً أن أنظفه ، انظر إلى ركبتيه ،يبدو وكأنك كنت تحكهما بجدار . لم يكن دون جوزيه قد انتبه إلى الحالة المزرية التي صار إليها بنطاله البائس بعد عملية التسلق ،فقد كان مكشوطاً عند الركبتين ، مع وجود تمزق صغير في إحدى ساقيه ، وهذا ضرر جدي بالنسبة إلى شخص مثله ، لا يملك الكثير من الملابس . سألها ، ألا توجد طريقة لإصلاحه ،الإصلاح ممكن ، وهذا يتطلب إرساله إلى رفاءة ، أنا لا أعرف أي واحدة ، يمكننا أن نتولى ذلك ، ولكن عليكَ أن تعلم أن الكلفة لن تكون رخيصة ، فالرفاءات يتقاضين أجراً عالياً ، ولكن ذلك سيكون في جميع الأحوال أفضل من بقائي دون بنطال ، يمكنكَ أن ترقعه ، بنطال مرقع لا يمكن استخدامه إلا في البيت ، ولكنه لا ينفع أبداً للذهاب إلى العمل ،طبعاً ،معكَ حق ، إنني موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني ، آه ،حضرتك موظف في المحفوظات ، قالت مستخدمة المصبغة ذلك بنغمة جديدة من صوتها تنم عن التوقير ، ورأى دون جوزيه أنه من الأفضل أن يتجاهلها ،نادماً لأنه تهور بالتكلم لأول مرة عن مكان عمله ، فلص السطو الليلي المحترف بصورة جدية لا يتجول موزعاً آثاره ، فلنتصور أن هذه المستخدمة في المصبغة متزوجة من المستخدم في محل الخردوات الذي اشترى منه دون جوزيه قطاعة الزجاج أو مستخدم محل الجزارة حيث اشترى الشحم ، وقد يحدث في الليل ، في إحدى تلك المحادثات التافهة التي يقضي بها الأزواج والزوجات سهراتهم ، تخرج فجأة في السياق هذه الأحداث الصغيرة من الحياة التجارية اليومية . ولكن لا يبدو أن ثمة خطراً هنا على أي حال ، اللهم إلا أن تكون هناك نوايا خفية

بوشاية دنيئة في ما تقوله المستخدمة ، وترفقه بابتسامة لطيفة ،فهي ستتقاضى في هذه المرة سعراً استثنائياً ،وستتولى المصبغة دفع أجور الرفاءة ، هذه لفتة نخص حضرتك بها لأنك موظف في المحفوظات . قالت محددة . شكرها دون جوزيه بتهذب ، ولكن دون تفخيم ، وانصرف . كان متضايقاً. فهو يخلّف آثاراً كثيرة في المدينة ، ويتحدث مع أشخاص كثيرين ، ليس هذا هو نمط التحريات الذي كان قد تخيله ، وحقيقة القول إنه لم يكن قد تخيل أي شيء ،فهذه الفكرة خطرت له الآن ، فكرة البحث عن المرأة المجهولة والعثور عليها دون أن يكون بإمكان أحد الانتباه إلى نشاطاته ، كما لو أن الأمر يتعلق بلامرئي يبحث عن لامرئي آخر . وبدلاً من هذا السر المغلق ، هذا الغموض المطلق ، صار هناك شخصان ، امرأة الزوج الغيور وسيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ، مطلعين على ما يفعله ، وهذا بحد ذاته يشكل خطراً، فلنفترض مثلاً أن أياً منهما ، وبنية المساعدة الحميدة في البحث ، مثلما هو واجب المواطنين الصالحين ،حضرت إلى المحفوظات في غيابه ، أريد التحدث مع دون جوزيه ، دون جوزيه ليس في الخدمة ، إنه في إجازة ، آه ، يا للأسف ، فقد جئته بمعلومة مهمة حول الشخص الذي يبحث عنه ، أي معلومة ، وأي شخص ، ودون جوزيه لا يرغب في مجرد معرفة ما سيأتي بعد ذلك ، بقية الحديث بين امرأة الزوج الغيور والمأمور ، لقد وجدتُ تحت لوح خشبي مفلت في غرفة نومي على يوميات (diario) ، أتعنين جريدة ، لا يا سيدي ، يوميات من تلك التي يحب بعض الناس كتابتها ، أنا أيضاً كانت لدي يوميات قبل زواجي ، وما هي علاقتنا نحن بهذه القضية ، فنحن في المحفوظات لا نهتم إلا بمعرفة ميلاد الناس وموتهم ، ربما كانت المذكرات لأحد أقرباء الشخص الذي يتحرى عنه دون جوزيه ،ليست لدي معلومات عن أن دون جوزيه يتحرى عن أي شخص ، وهذه المسألة على أي حال ليست من اختصاص المحفوظات العامة ،فالمحفوظات العامة لا تتدخل في الحياة الخاصة لموظفيها ،ليست مسألة خاصة ،فقد قال لي دون جوزيه إنه يمثل المحفوظات ، انتظري لحظة ،

سأستدعي نائب المدير ، ولكن عندما اقترب نائب المدير من منضدة الكونتوار كانت السيدة المسنة قاطنة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي تستعد للمغادرة ، فقد علمتها الحياة بأن أفضل طريقة لحماية الأسرار الخاصة هي في احترام أسرار الغير ، عندما يرجع دون جوزيه من إجازته ، أرجوك أن تخبره بأن عجوز الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي جاءت في طلبه ، ألا تريدين ترك اسمك ، ليس ضرورياً ، فهو يعرف من أكون . كان بإمكان دون جوزيه أن يزفر براحة ،فسيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي هي التكتم مجسداً ،فهي لن تخبر نائب المدير أبداً بأنها تلقت للتو رسالة من ابنتها في العماد ، وفكر دون جوزيه ، لقد قلبت الانفلونزا رأسي ، فما هذه إلا تخيلات لا يمكن لها أن تحدث ، فليس هناك مذكرات مخبأة تحت خشب الأرضية ، ولن يخطر لها الآن ، بعد صمت كل تلك السنوات ، أن تكتب رسالة إلى عرابتها ، ولحسن الحظ أن العجوز تمتعت بالحس السليم ولم تذكر اسمها ، إذ يكفي المحفوظات العامة أن تمسك بطرف هذا الخيط لتكتشف كل شيء خلال وقت قصير ، البطاقات المستنسخة ، تزييف وثيقة التكليف ، وسيكون ذلك سهلاً عليهم مثل سهولة من يجمع أجزاء لوحة مفككة وهو يملك رسماً كاملاً لها أمام ناظريه . توجه دون جوزيه إلى البيت ، ولم يشأ في هذا اليوم الأول أن يعمل بالنصائح التي قدمها إليه نائب المدير ، عن التنزه ، والذهاب إلى الحدائق للتعرض للشمس الجيدة على وجهه الشاحب الناقه، لكي يستعيد ، بكلمة واحدة ، قواه التي استنزفتها الحمى . إنه بحاجة إلى إقرار الخطوات التي يناسبه اتخاذها ابتداء من الآن ، ولكنه يحتاج قبل كل ذلك إلى تهدئة قلق يراوده . هل سيترك بيته الصغير تحت رحمة المحفوظات ، ملتصقاً بالجدار العملاق الذي يبدو وكأنه على وشك أن يبتلعه . لا بد أن هناك أثراً من الحمى ما يزال في رأسه المشوش لكي يفكر ، فجأة ، بأن ذلك هو ما حدث لبيوت الموظفين الأخرى ، وأن المحفوظات قد افترستها جميعها لكي تُسمِّن جدرانها . غذ دون جوزيه الخطى ، فهو لا يريد حتى أن يتصور حجم النكبة إذا ما وصل ووجد أن البيت قد اختفى ، وإذا ما اختفت معه البطاقات والدفتر

وضاعت هباء جهوده التي بذلها طوال أسابيع ، وذهبت مغامراته أدراج الرياح بسبب ما حدث . وستكون قد اجتمعت حشود من الفضوليين ليسألوه عما إذا كان قد فقد شيئاً ثميناً في الكارثة ، وسيجيب بنعم ، بعض الأوراق ، فيسألونه من جديد ، أهي أسهم ، سندات ، وثائق ديون ، فهذا هو ما يفكر فيه الناس العاديون الذين بلا أفق روحي ، أفكارهم تتركز على المصالح والأرباح المادية ، ويعود هو إلى القول لهم نعم ، ولكنه يضفي في ذهنه معاني أخرى على هذه الكلمات ، إنها الأسهم التي اقترفها ، والسندات التي تولاها ، ووثائق الديون التي كسبها .

كان البيت ما يزال في مكانه ، ولكنه بدا أصغر بكثير ، أو أن المحفوظات هي التي تضخمت خلال الساعات الأخيرة . دخل دون جوزيه وهو يحني رأسه ، مع أنه لم يكن بحاجة إلى الانحناء ، فأسكفة الباب الخارجي ما زالت على ارتفاعها المعهود ، وهو لم ينمُ جسدياً ، كما يبدو واضحاً ،بفعل الأسهم والسندات والديون . ذهب ليتنصت بجانب باب الاتصال ، ليس لأنه يأمل في سماع صوت ما في الجانب الآخر ، فالعادة في المحفوظات هي العمل بصمت ، وإنما ليهدئ مشاعر الشك المضطربة التي تشغله منذ أن أمره الرئيس بالتقدم بطلب إجازة . ثم رفع بعد ذلك فراش السرير ، وتناول البطاقات ورتبها حسب تسلسلها التاريخي على الطاولة ، من الأقدم إلى الأحدث ، ثلاث عشرة قطعة كرتونية مستطيلة ، متوالية وجوه تتحول من طفلة صغيرة إلى طفلة كبيرة ، من بدء مراهقة إلى ما يشبه امرأة تقريباً .وخلال تلك السنوات بدلت الأسرة بيتها ثلاث مرات ، ولكنها لم تبتعد في تنقلها كثيراً إلى حدّ الاضطرار إلى استبدال المدرسة . ليس هناك ما يستحق الانهماك في تدبير خطط عمل معقدة ، فالشيء الوحيد الذي يمكن لدون جوزيه عمله الآن هو الذهاب إلى عنوان المنزل المدون في البطاقة الأخيرة .



ذهب في اليوم التالي صباحاً ، ولكنه قرر عدم الصعود لسؤال شاغلي البيت الحاليين ومستأجري البناية الآخرين عما إذا كانوا يعرفون الطفلة صاحبة الصورة . من المؤكد أنهم سيردون عليه بأنهم لا يعرفونها ، وأنهم يعيشون هنا منذ وقت قصير أو أنهم لا يتذكرون ، تفهم الأمر ،فالناس يذهبون ويجيئون ، والحقيقة أنني لا أتذكر شيئاً عن هذه الأسرة ، ليس هناك ما يستحق عناء تقليب الدماغ ، وإذا كان هناك من سيقول نعم ، يبدو له أن لديه فكرة غامضة ، فإنه سيضيف على الفور بأن علاقاتهم لم تكن تتعدى حدود العلاقة الطبيعية بين أناس مهذبين ، وسيلّح دون جوزيه ، ألم تعد تراهم ، لم أرهم قط ، منذ أن رحلوا لم أعد أراهم قط ، يا له من أمر مؤسف ، لقد أخبرتك بكل ما أعرفه ، يؤسفني أنني لم أستطع أن أكون أكثر فائدة للمحفوظات العامة . الحظ الذي حالفه في العثور منذ البداية تحديداً على سيدة في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي جيدة الاطلاع ، وقريبة جداً من المصادر الأصلية للقضية ، لا يمكن له أن يتكرر مرتين ، ولكن دون جوزيه سيكتشف بعد وقت طويل ، عندما لا يعود شيء مما يروى هنا بذي أهمية ، بأن الحظ السعيد كان حليفه بصورة عجيبة في هذه الحالة ، ووفر عليه عواقب وخيمة .فهو لم يكن يعرف بأن أحد ساكني البناية هو بالتحديد ، وبفعل مصادفة شيطانية ،أحد نائبي المدير في المحفوظات ،

ويمكن له أن يتخيل المشهد الرهيب بسهولة ، سيطرق رجلنا الواثق دون جوزيه الباب ، عارضاً البطاقة ، وربما وثيقة التكليف المزيفة ، فتقول له المرأة التي تستقبله لتوقع به ، عد لاحقاً ، عندما يكون زوجي في البيت ، فهذه الأمور هي ضمن مجال اختصاصه ، وسيرجع دون جوزيه لاحقاً ، بقلب مفعم بالآمال ، فيصطدم بنائب مدير غاضب يُصدر على الفور أمراً بالسجن ، فأنظمة المحفوظات العامة للسجل المدني ، ونقول هذا بالمعنى الدقيق وليس بالمعنى المجازي ، لا تقبل التصرفات الطائشة والارتجالية ، والأسوأ أننا لا نعرف تلك الأنظمة كلها . لقد نجا دون جوزيه ، دون أن يعرف ذلك ، من أكبر كارثة في حياته الوظيفية ، حين قرر هذه المرة ، كما لو أن ملاكه الحارس قد نصحه هامساً في أذنه بإلحاح ، التوجه في تحرياته نحو المتاجر القريبة . اكتفى إذن بالنظر إلى نوافذ البيت الذي عاشت فيه المرأة المجهولة في طفولتها ، ولكي يدخل على أحسن وجه في جلده كمتحرٍ حقيقي ، تخيل أنه يراها تخرج حاملة حقيبة كتبها لتذهب إلى المدرسة ، وتسير حتى موقف الحافلة وتنتظر هناك ، لا يجدر به أن يلحق بها مقتفياً أثرها خطوة خطوة ، فدون جوزيه يعرف جيداً إلى أين هي ذاهبة ، ولديه الأدلة القاطعة على ذلك مخبأة بين الفراش وسطح السرير . بعد ربع ساعة من ذلك خرج الأب ، إنه يتخذ الاتجاه المعاكس ، هذا هو سبب عدم مرافقته ابنته حين تذهب إلى المدرسة ، اللهم إلا إذا كان هذا الأب وهذه الابنة لا يحبان السير معاً ويتذرعان بهذه الحجة ، بل ربما لا يتذرعان ، فهناك نوع من الترتيب المضمر بينهما ، حتى لا ينتبه الجيران إلى عدم مبالاتهما المتبادل . لم يعد أمام دون جوزيه الآن إلا التحلي بقليل من الصبر ، وانتظار خروج الأم من أجل المشتريات ، كما هي عادة كل الأسر ، وهكذا سيتاح له أن يعرف إلى أين يوجه تحرياته ، أقرب محل تجاري ، على بعد ثلاث عمارات ، هي تلك الصيدلية ، ولكن الشك خامر دون جوزيه ، فور دخوله ، بإمكانية الحصول على أي معلومة مفيدة هنا ، فقد كان المستخدم رجلاً شاباً وجديداً

في المحل ، وقد قال له هو نفسه ، لستُ أعرفها ، إنني أعمل هنا منذ سنتين فقط . ولكن دون جوزيه لن يفقد حماسه بهذه السرعة ،فقد قرأ من الجرائد والمجلات أكثر مما هو كاف ، إضافة إلى التجربة التي منحته إياها الحياة ، لكي يدرك أن هذه التحريات ، التي تجري على الطريقة القديمة ، تكلف جهداً كبيراً ،وعليه أن يمشي ويمشي ، أن يذرع شوارع ودروباً، ويصعد أدراجاً ، ويطرق أبواباً ، وينزل الأدراج ، ويوجه السؤال نفسه ألف مرة ، ويتلقى الإجابات نفسها ، وبالنبرة المتحفظة نفسها على الدوام تقريباً، لستُ أعرفها ، لم أسمع شيئاً عن هذه الشخصية قط ، ونادراً ما يحدث أن يأتي من الداخل صيدلي أكبر سناً سمعَ الحديث ، ويكون رجلاً فضولياً، فيسأل ،ما الذي ترغب فيه ، إنني أبحث عن شخص ، يرد دون جوزيه بذلك في الوقت الذي يمد يده إلى جيب سترته الداخلي ليعرض وثيقة اعتماده . لم يتوصل إلى إكمال الحركة ، فقد أوقفه قلق مباغت ، ولكن لم يكن القلق في هذه المرة من صنع أي ملاك حارس ، فما جعله يعيد يده هو نظرة الصيدلي ، فهي نظرة تبدو أشبه بخنجر ، أو أشبه بمثقب ، لا يمكن لأحد تحديد ذلك ، فبذلك الوجه المجعد ، وذلك الشعر الشائب ، تكون محصلة النظر بتينك العينين هي التزام أشد المخلوقات سذاجة جانب الحذر ، وربما هذا هو السبب في عدم قدرة الصيدلي على إشباع فضوله قط ، فكلما أراد معرفة المزيد ، تضاءل ما يخبرونه به . وهذا ما حدث مع دون جوزيه . فلم يُخرج التكليف المزيف ولم يقل إنه آت من المحفوظات العامة ، واكتفى بإخراج البطاقة المدرسية الأخيرة للفتاة من جيب آخر ،وقد خطر له أن يحملها معه في ساعة سعد ، مدرستنا بحاجة إلى العثور على هذه السيدة بسبب شهادة لم تأت لتأخذها من السكرتارية ، وكان دون جوزيه يشهد بتلذذ ، بل وبحماس تقريباً ، ممارسته لقدراته الاختلاقية التي لم يتصور قط أنه يمتلكها ، واثقاً من أنه لم يوقع نفسه في شرك سؤال الصيدلي ، وهل تبحثون عنها بعد انقضاء كل هذه السنوات ، فرد عليه ،ربما لن تكون

مهتمة بها ، ولكن واجب المدرسة يقتضي بذل كل الجهود الممكنة لتسليم الشهادة لصاحبتها ، وكنتم تنتظرون طوال هذا الوقت أن تأتي هي بنفسها ، إذا أردت الحقيقة ،فإن دائرة الخدمات لم تلحظ الواقعة .لقد كان سوء انتباه مؤسفاً من جانبنا ، خطأ بيروقراطياً ، إذا ما أردنا تفسيره بطريقة ما ، ولكن هناك على الدوام متسع لإصلاح أي زلة ، إذا ما كانت السيدة قد ماتت ، فلن يكون ثمة متسع ، لدينا أسباب للاعتقاد بأنها ما تزال على قيد الحياة ، وكيف ذلك ، بدأنا بالاستفسار في السجل ، وقد توخى دون جوزيه الحذر بتجنب النطق بكلمتي المحفوظات العامة ، وتجنب بفضل ذلك ، في تلك اللحظة على الأقل ، أن يتذكر الصيدلي بأن هناك ، بين زبائنه ، نائباً لمدير المحفوظات العامة ، وأنه يعيش على بعد ثلاث بوابات بذلك الاتجاه . لقد نجا دون جوزيه للمرة الثانية من العقوبة القصوى .صحيح أن نائب المدير لا يدخل إلى الصيدلية إلا في أوقات متباعدة ،فمثل هذه المشتريات ، كما هو شأن غيرها من المشتريات ، تقوم بها زوجته ، باستثناء الواقيات الذكرية التي تدفع الوساوس الأخلاقية نائب المدير لشرائها من حي آخر ، ولهذا لم يكن من السهل تصور أن تدور محادثة بين نائب المدير والصيدلي ، مع أنه يجب عدم استبعاد حدوث حوار آخر ،كأن يقول الصيدلي لزوجة نائب المدير ، حضر إلى هنا موظف مدرسي للبحث عن شخص كان يعيش ،منذ زمن ، في البيت الذي تعيشون فيه الآن ، وقد أخبرني في إحدى اللحظات بأنه استفسر في السجل ، ولكنني ، وبعد مغادرته ، وجدت من المستغرب أن يقول السجل بدلاً من المحفوظات العامة ، يبدو لي أنه يخفي شيئاً ما ، بل إنه مدّ يده في إحدى اللحظات إلى جيب سترته الداخلية وكأنه يستعد ليعرض علي شيئاً ، ولكنه ندم على ذلك وصحح فعلته ،فأخرج من جيب آخر بطاقة تسجيل في المدرسة ، وأنا أحاول تقليب الأمر في رأسي الآن لأتصور ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الشيء ، أظن أنه يجب علي أن أتحدث في الأمر مع زوجك ، فلا يمكن لأحد

أن يعـرف مـا الـذي ينويه ، وسط الشـرور التي تذرع هذا العـالم ، ربما هو الرجل نـفسـه الذي كـان يقف أول أمس على الرصيف ، وينظر إلى نوافذ بيتنا ، أهو شخص متوسط العمر ، أصغر مني سناً بقليل ، ويبدو على وجهه أنه كان مريضاً قبل وقت قصير ، إنه هو نفسه ، هذا ما كنت أظنه ، حاسة شمي لم تخني قط ، ولم يولد بعد من يمكنه أن يخدعني ويبيعني قطاً على أنه أرنب ، من المؤسف أنه لم يطرق باب بيـتي ، لأنني كنت طلبت منه أن يرجع في نهاية المساء ، عندما يكون زوجي في البيت ، وكنا عرفنا الآن من هو هذا الشـخص ومـا الذي يسعى إليه ،سـأبقى متـيقظاً فلعله يرجع مرة أخرى إلى هنا ، وأنا لن أنسى أن أخبـر زوجي بالقصـة . ولم تنس فـعلاً، ولكنهـا لم تخبـره بها كـاملة ، فـقد أسـقطت من القصـة ، دون أن تدري ، تفصيلاً مهماً ، ربما هو الأكثر أهمية من كل التفاصيل ،فهي لم تقل إن الرجل الذي يتسكع حول البيت كان مريضاً قبل وقت قصير . فنائب المدير المعتاد على ربط الأسباب بالنتائج ، لأن هذا هو الجوهر الحقيقي لنظام القوى الذي يحكم منذ بداية الأزمنة المحفوظات العامة ، هناك حيث كل شيء كان ، ومازال ، وسيبقى إلى الأبد مرتبطاً بكل شيء ، ذاك الذي ما يزال حياً بذاك الميت ، وذاك الذي يحتضر بذاك الذي يولد ، كل الكائنات بكل الأشياء ، وكل الأشياء بكل الأشياء ،حتى عندما يبدو أنه ليس ثمة ما يجمع ، بينهم وبينهن ، إلا ذاك الذي يفرقهم في الظاهر ، إلا أنه ما كان لنائب المحافظ اللبيب إلا أن يتذكر دون جوزيه ، ذلك الكاتب الذي بدأ في الآونة الأخيرة ، رغم رأفة الرئيس التي لا تفسير لها ، يتصرف بطريقة شديدة الغرابة . ومن هناك إلى حلّ طرف خيط من اللفافة ، ثم اللفافة كلها ، لا توجد سوى خطوة واحدة . وهو ما لن يحدث ، مع ذلك ، ولن يعودا لرؤية دون جوزيه في تلك الأماكن . فمن بين المتاجر العشرة من مختلف فروع التجارة التي دخلها لتوجيه الأسئلة ، بما فيها الصيدلية ، وجد في ثلاثة منها فقط من يتذكر الفتاة وأبويها ، فالصورة التي على البطاقة المدرسية تساعد

كثيراً في التذكر بالطبع ، ومن المحتمل أن الأشخاص الذين استجوبهم أرادوا أن يبدوا لطفاء ، وألا يخذلوا الرجل المصاب بانفلونزا لم يشف منها تماماً كما يبدو على وجهه ، والذي يحدثهم عن شهادة مدرسية لم تسلم لصاحبتها منذ عشرين سنة . عندما وصل دون جوزيه إلى بيته ،كان مستنفداً ومثبط العزيمة ،فمحاولته الأولى في هذه المرحلة الجديدة من التحري لم توفر له أي بداية لطريق يمكنه أن يسلكه ، بل على العكس ، إذ يبدو أنها وضعته أمام جدار لا يمكن تجاوزه . ارتمى الرجل المسكين على السرير سائلاً نفسه لماذا لا يفعل ما قاله له الصيدلي بتكتم ساخر ،لو كنتُ مكانك لحللت المشكلة ، كيف ،سأله دون جوزيه ،بالنظر في دليل الهاتف ،فهذه هي أسهل طريقة للعثور على شخص في الأزمنة الحديثة، شكراً لاقتراحك ، ولكننا فعلنا ذلك ، واسم هذه السيدة غير وارد ، ردّ عليه دون جوزيه معتقداً أنه سيُطبق بذلك فم الصيدلي ، ولكن هذا الأخير عاد إلى الهجوم ، إذا كان الأمر كذلك ،فاذهب إلى مديرية المالية العامة ،ففي المالية العامة يعرفون كل شيء عن الجميع . نظر دون جوزيه إلى مثير القلق ذاك ، وحاول أن يداري اضطرابه ، فهذا أمر لم يخطر لسيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ، وأخيراً تمكن من القول متلعثماً ، إنها فكرة جيدة ، سأخبر المدير بها . خرج من الصيدلية غاضباً من نفسه ، كما لو أنه افتقر في اللحظة الأخيرة إلى حضور الروح للرد على إهانة ، وكان مستعداً للعودة إلى البيت دون مزيد من الأسئلة ، ولكنه فكر بعد ذلك مستسلماً ،لقد سُكب النبيذ ، ولا بد من شربه ، ولم يقل مثلما قال ذاك الآخر ، أبعدوا عني هذه الكأس ،فأنتم تريدون قتلي .المتجر الثاني الذي دخله كان محل خردوات ، والثالث محل جزارة ، والرابع محل قرطاسية ، والخامس متجر أدوات كهربائية ، والسادس دكان مأكولات ، الروتين المعهود في الأحياء ، وهكذا حتى المحل العاشر ،وقد حالفة الحظ لحسن الحظ ، إذ لم يحدثه أحد ، بعد ذلك الصيدلي ، عن مراجعة المالية أو دليل الهاتف . والآن ، بينما

هو مستلق على ظهره ، ويداه متقاطعتان تحت رأسه ، كان دون جوزيه ينظر إلى السقف ويسأله ، ما الذي يمكنني عمله بدءاً من الآن ، فيرد عليه السقف ، لا شيء ، فقد عرفتَ عنوانها الأخير ، أعني ، العنوان الأخير في الزمن الذي كانت ترتاد فيه المدرسة ، ولم يقدم لك أي أثر يفيدك في مواصلة البحث ، ما زال يمكنك بالطبع اللجوء إلى العناوين السابقة ، ولكن ذلك سيكون مضيعة للوقت ، ما دام تجار الشارع ، وهم أكثر الناس اطلاعاً ، لم يستطيعوا مساعدتك ، فكيف سيتمكن الآخرون من مساعدتك ، أنت ترى إذن أنه علي التخلي عن الموضوع ، ربما لم يعد أمامك مخرج آخر ، اللهم إلا ذهابك للسؤال في المالية ، ولن يكون الأمر صعباً وأنت تملك وثيقة التكليف هذه ، أضف إلى ذلك أنهم موظفون مثلك ، ولكن وثيقة التكليف مزيفة ، سيكون من الأفضل عملياً عدم استخدامها ، فلستُ أتمنى أن أكون في جلدك إذا ما فاجأوك في أحد هذه الأيام بالجرم المشهود ، لا يمكن لك أن تكون في جلدي ، فلستَ سوى سقف من الملاط ، أجل ، ولكن هذا الذي تراه مني هو الجلد أيضاً ، أضف إلى ذلك أن الجلد هو كل ما نريد أن يراه الآخرون ، أما تحته فلا يمكن لنا نحن أنفسنا أن نعرف من نكون ، سأخبئ وثيقة التكليف ، لو كنتُ مكانك لمزقتها ، أو أحرقتها ، سأخبئها مع أوراق المطران ، أين وضعتُها ، أنت من يجب أن يعرف أين هي ، لا تروقني هذه النبرة التي تتكلم بها ، تبدو لي نبرة فأل شؤم ، حكمة السقوف لا حدود لها ، إذا كنتَ سقفاً حكيماً ، فقدم لي فكرة ، واصل النظر إلي ، فهذا يؤدي إلى نتيجة أحياناً.

الفكرة التي قدمها السقف إلى دون جوزيه هي أن يقطع إجازته ويعود إلى العمل ، ستقول للرئيس إن لديك ما يكفي من القوة وتطلب منه أن يحفظ لك الأيام المتبقية لفرصة أخرى ، هذا إذا كنت ما تزال تجد طريقة للخروج من الثقب الذي أدخلت نفسك فيه ، حيث كل الأبواب مغلقة وليس هناك أثر يوجهك ، سيستغرب الرئيس مجيء موظف إلى العمل دون

أن يكون مضطراً إلى ذلك ودون أن يكون قد استُدعي إليه ، ولكنك قمت بأشياء أشد غرابة بكثير في الفترة الأخيرة ، لقد كنتُ أعيش بسلام قبل أن يتسلط هذا الهاجس العقيم على عقلي ، البحث عن امرأة لا تعرفُ حتى أنني موجود ، ولكنك تعرف أنها موجودة ، وهذه هي المشكلة ، من الأفضل أن أتخلى عن الأمر دفعة واحدة ، هذا ممكن ، هذا ممكن ، وتذكر على أي حال بأن حكمة السقوف ليست هي وحدها غير المحدودة ، لأن مفاجآت الحياة هي كذلك أيضاً ، ما الذي تعنيه بهذا الكلام الزنخ ، أعني أن الأيام تتوالى ولا تتكرر ، هذه فكرة أشد زنخاً من سابقتها ، ولا تقل لي إن حكمة السقوف تكمن في مثل هذه العبارات المبتذلة ، علق دون جوزيه بازدراء ، أنتَ لا تعرف شيئاً من الحياة إذا كنت تعتقد بوجود شيء أكثر يمكن معرفته ، قال السقف ذلك ثم صمت . نهض دون جوزيه من السرير ، خبأ وثيقة التكليف في الخزانة ، بين أوراق المطران ، ثم بحث عن دفتر الملاحظات وراح يدون أحداث الصباح المحبطة ، مشدداً بصورة خاصة على نبرة الصيدلي المنفرة ونظرته المرهفة . وكتب في نهاية القصة ، كما لو أن الفكرة هي من بنات أفكاره ، أعتقد أنه من الأفضل أن أعود إلى العمل . وبينما كان يخبئ الدفتر تحت الفراش تذكر أنه لم يتناول الغداء ، قال له ذلك رأسه ، وليس معدته ، فمع مرور الوقت وإهمال الطعام ينتهي الأمر بالناس إلى عدم سماع منبه الشهية . ولو أن دون جوزيه سيواصل إجازته لما أهمه أن يندس في الفراش بقية اليوم ، والبقاء دون طعام ، وعدم العشاء ، وأن ينام طوال الليل إن أمكن ، أو أن يلجأ إلى السبات الإرادي لمن قرر أن يدير ظهره لأحداث الحياة المزعجة . إنما عليه أن يغذي جسده لكي يعمل في اليوم التالي ، فهو يمقت أن يوصله الضعف ثانية إلى التعرق البارد والاغماءات المضحكة أمام شفقة زملائه المتكلفة ونفاد صبر رؤسائه . خفق بيضتين ، وأضاف إليهما بعض شرائح السجق ، ورشة لا بأس بها من الملح الخشن ، وضع زيتاً في مقلاة ، وانتظر أن تسخن إلى الحد المضبوط ،

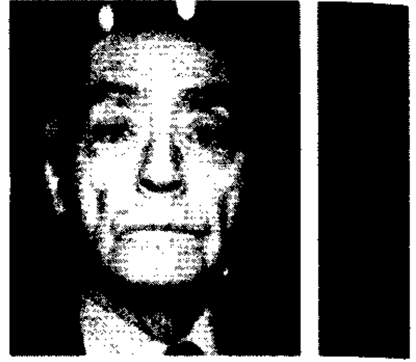
وقد كانت هذه هي موهبته الوحيدة في الطبخ ، وما سوى ذلك يتلخص في فتح المعلبات . أكلَ طبق العجة بتأنٍ ،بتقطيعه إلى أجزاء هندسية ، وحاول إطالة أمد ذلك أكثر ما يمكن ، لكي يشغل الوقت ، وليس لترف التلذذ بالطعام . ولأنه لا يريد أن يفكر قبل كل شيء . الحوار المتخيل والميتافيزيقي مع السقف أفاده في التغطية التامة على تشتت روحه ، والإحساس بالرعب الذي تثيره فيه فكرة أنه لن يكون لديه شيء يعمله في الحياة إذا ما كان بحثه عن المرأة المجهولة قد انتهى ، وهو ما لديه أسباب للاعتقاد به . كان يشعر بعقدة قاسية في حنجرته ، مثلما كان يحدث له في طفولته عندما يعنفونه لدفعه إلى البكاء ، وكان آنذاك يتحمل ، يتحمل ، إلى أن تطفر منه الدموع في نهاية المطاف ، مثلما بدأت تطفر منه الآن ، في نهاية المطاف . أزاح الطبق جانباً ، ترك رأسه يهوي على ذراعيه المتقاطعتين وبكى دون حياء ، ولم يكن هناك أحد على الأقل في هذه الساعة ليضحك منه . وهذه واحدة من تلك الحالات التي لا يمكن فيها للسقوف أن تفعل شيئاً لمساعدة الأشخاص المحزونين ، وتضطر إلى الاكتفاء بالانتظار هناك في الأعلى إلى أن تمر العاصفة ، وتنفس الروح عن كربها ، ويتعب الجسد . وهذا هو ما حدث لدون جوزيه . فبعد بضع دقائق أحس بالتحسن ، مسح دموعه بفظاظة بكم قميصه ومضى ليغسل الطبق وأدوات الطعام . كان أمامه المساء كله وليس لديه ما يفعله . فكر في زيارة سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، وأن يروي لها ما يحدث إلى هذا الحد أو ذاك ، ولكنه قدّر بعد ذلك أن الأمر لا يستحق العناء ، فقد أخبرته هي بكل ما تعرفه ، وربما انتهى بها الأمر إلى سؤاله عن الشياطين التي تدفع المحفوظات العامة إلى بذل كل هذا الجهد من أجل شخص عادي ، من أجل امرأة ليست لها أية أهمية ، وسيكون ضرباً من الزيف غير الوقور ، ومن البلاهة البالغة ، أن يرد عليها بأننا جميعنا في نظر المحفوظات العامة للسجل المدني متساوون ، مثلما هي الشمس بالنسبة إلى الجميع عندما تطلع ، هناك أشياء من غير

المناسب أن تقال أمام شخص عجوز إذا كنا لا نريده أن يضحك منا في وجهنا . تناول دون جوزيه من أحد أركان البيت حزمة من المجلات والصحف القديمة ، من تلك التي كان قد قص منها الأخبار والصور ، ويمكن أن يكون قد فاته شيء مهم لم ينتبه إليه أو أن هناك فيها بداية حديث عن أحدهم يبشر بوعد مقبول في دروب الشهرة الشاقة . وعاد دون جوزيه إلى مجموعاته .

كان أكثر من فوجئ بينهم جميعاً هو المدير . فقد دخل ، كما هي العادة ، حين كان جميع العاملين في أماكنهم يباشرون عملهم ، وتوقف لثلاث ثوان إلى جانب منضدة دون جوزيه ، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة . توقع دون جوزيه أن يتم إخضاعه إلى استجواب مباشر حول أسباب عودته السابقة لأوانها إلى العمل ، ولكن الرئيس اكتفى بسماع التفسيرات التي قدمها إليه على الفور نائب المدير المعني بالقسم ، والذي صرفه بعد ذلك بحركة حاسمة من يده اليمنى ، وكان إصبعاه السبابة والوسطى فيها ملتصقين ومشدودين ، بينما بقية الأصابع شبه مضمومة ، وهو ما يعني ، حسب قواعد الإيماءات في المحفوظات ، أنه غير مستعد لسماع كلمة أخرى حول الموضوع . كان دون جوزيه ، المشتت بين توقعه الأول بأن يتم استجوابه وبين اطمئنانه إلى أنهم قد تركوه بسلام ، يحاول أن يجلو أفكاره ، وأن يركز حواسه على العمل الذي وضعه المأمور فوق منضدته ، وهو أكثر من عشرين شهادة ميلاد جديدة يتوجب نقل المعلومات منها إلى البطاقات ، وأرشفة هذه البطاقات في أدراج الكونتوار ، وفق الترتيب الأبجدي المعمول به . كان عملاً بسيطاً ، ولكنه ينطوي على مسؤولية ، وهو عمل يتميز ، بالنسبة إلى دون جوزيه ، الذي ما يزال يعاني ضعفاً في ساقيه ورأسه ، بإمكانية إنجازه جالساً . أخطاء النساخ هي آخر ما يمكن التسامح فيه ، ولن يفيد في شيء قولهم ، لقد سهوت ، بل على العكس ، فاعترافهم بالسهو هو اعتراف بأنهم كانوا يفكرون في شيء آخر ، بدلاً من تركيز

اهتمامهم على الأسماء والبطاقات التي تأتيها أهميتها القصوى من كونها هي ، في الحالة الآنية ، من تمنح وجوداً شرعياً لواقع الوجود . وخصوصاً اسم الشخص الوليد . فأي خطأ بسيط في النسخ ، مثل تبديل الحرف الأول من إحدى الكنيتين ، سيؤدي إلى وضع البطاقة في غير موقعها ، بل وبعيداً جداً عن المكان الذي يجب أن تكون فيه ، كما قد يحدث في هذه المحفوظات العامة للسجل المدني ، حيث الأسماء كثيرة ، إذا لم نقل إنها كل الأسماء . فلو أن الكاتب الذي نسخ ، في أزمنة ماضية ، اسم دون جوزيه ، كتب شوزيه ، مخطئاً ذهنياً بسبب تشابه اللفظ الذي يكاد يصل إلى حد التطابق ، فسوف تكون الطامة الكبرى في العثور على البطاقة الضالة لتسجيل أي واحدة من الوقوعات الثلاثة المألوفة ، أي الزواج ، والطلاق ، والوفاة ، وهي وقوعات يمكن تجنب اثنين منها إلى هذا القدر أو ذاك ، أما الثالثة فلا مهرب ولا خلاص منها على الإطلاق . ولهذا راح دون جوزيه ينسخ بكل حذر ، حرفاً فحرفاً ، إثباتات حياة هذه الكائنات الجديدة التي عُهد إليه بها ، وكان قد أنجز ست عشرة شهادة ميلاد ، وسحب بيده الآن السابعة عشرة ، وهيأ البطاقة ، ولكن يده بدأت ترتجف فجأة ، وزاغت عيناه ، وغطى العرق بشرة جبهته . فالاسم الذي أمامه ، وهو لشخص من الجنس الأنثوي ، مطابق في كل شيء تقريباً لاسم المرأة المجهولة ، وليس هناك سوى فرق وحيد في كنيتها الثانية ، مع أن الحرف الأول من هذه الكنية هو نفسه . وهكذا فإن كل الاحتمالات تشير إلى أن هذه البطاقة ، بهذا الاسم الذي تحمله ، يجب أن تؤرشف بعد تلك البطاقة ، ولهذا نهض دون جوزيه عن كرسيه فور انتهائه من عملية التسجيل ، كمن لم يعد قادراً على التحكم بجزعه مع اقتراب لحظة لقاء منتظر بلهفة ، وهرع نحو الدرج المناسب في خزانة البطاقات ، وراح يمر بأصابعه العصبية فوق البطاقات ، بحث ، ووجد المكان . لم تكن بطاقة المرأة المجهولة في مكانها . فومضت الكلمة المشؤومة على الفور في رأس دون جوزيه ، ماتت . لأن دون جوزيه

يعـرف بالضـرورة أن غـيـاب بطـاقـة من الأرشـيف تـعني دون ريب مـوت صاحبها ، فكم من بطاقات لا حصر لها سحبها هو نفسه من هنا ، خلال خمس وعشرين سنة من عمله كموظف ، ونقلها إلى أرشيف الموتى ، ولكنه يرفض الآن تقبل ما هو جلي ، في أن يكون هذا هو سبب اختفاء البطاقة، ربما وقع إهمال وبدّل أحد الزملاء غير الأكفاء مكان البطاقة ، وربما هي إلى الأمـام قليـلاً أو إلى الوراء قليـلاً ،فدون جـوزيه يريـد ، بدافع اليـأس ، أن يخـدع نفـســه ،مع أنه لم يحـدث قط ، طوال قـرون وقـرون من عــمل المحفوظات العامة ، أن وُضعت بطاقة من هذا الأرشيف في غير مكانها، ولكن هناك احتمال واحد ،احتمال واحد فقط ،بأن تكون المرأة ما تزال على قيد الحياة ، وذلك بأن تكون بطاقتها موجودة بصورة مؤقته بين يدي أحد الكتبة من أجل تسجيل واحدة من الوقوعات الجديدة ، ربما تكون قد تزوجت مـرة أخرى ، هكذا فكر دون جـوزيه ، ولهنيهـة ،هدّأ التناقض غـير المنتظر الذي سببته له الفكرة من قلقه . بعد ذلك ، ودون أن ينتبه تقريباً لما يقوم به ، وضع البطاقة التي كـان قد استنسـخها عن الإبلاغ بـالولادة في مكان البطـاقة المختـفيـة ،وعاد بسـاقين مـرتجفتين إلى طاولتـه . لا يمكنه أن يسـأل زمـلاءه إذا ما كـانت لديهم ، بالمصـادفة ، بطاقـة السيـدة ، ولا يمكنه التجول حول طاولاتهم ناظراً بطرف عينه إلى الأوراق التي يـعملون بهـا ،لا يمكنه أن يفعل شيئاً باستثناء مراقبة درج البطاقات ليرى إذا ما كان أحدهم سيـعيد المسـتطيل الكرتوني المسحوب من مكانه نتيجة خطأ أو لسبب أقل روتينية من الموت . راحت السـاعات تمر ، وأفسح الصبـاح المجال للمسـاء ، ومـا اسـتطاع دون جوزيه تناوله فـي الغداء لم يكن شيـئاً يُذكـر ، لا بد أن هناك شيئاً في حنجرته يجعل هذه الغصات تتوالى بسـهولة ، وهذا الضيق ، وهذا الغم . لم يـفتح أي واحـد من زملائه درج البطاقات ذاك ، ولم تجد أي بطاقة شاردة طريق عودتها ، فالمرأة المجهولة قد ماتت .



رجع دون جوزيه هذه الليلة إلى المحفوظات . كان يحمل مصباح الجيب ولفافة حبل متين طوله مئة متر . وكان في المصباح بطارية جديدة ، تدوم لعدة ساعات من الاستخدام المتواصل ، ولكن دون جوزيه الذي استخلص العبر من الصعوبات التي وجد نفسه مضطراً إلى مواجهتها ، خلال مغامرته في تسلق المدرسة والسطو عليها ، تعلم من الحياة أن كل الاحتياطات تبقى قليلة ، خصوصاً عندما تخرج عن سبل السلوك السوية النزيهة لتنساق عبر دروب الجريمة الملتوية . وليتصور المرء عطباً يصيب لمبة المصباح الصغيرة ، أو ليتصور أن العدسة التي تحميها وتركز النور قد أفلتت من موضعها ، فليتصور أن المصباح ، مع البطارية والعدسة واللمبة السليمة ، يسقط فجأة في ثقب لا يمكن الوصول إليه بالذراع ، أو حتى بخطاف ، ولافتقار دون جوزيه إلى خيط آريان الحقيقي ، لأنه لا يجرؤ على استخدام ذلك الخيط بالرغم من أن درج منضدة الرئيس ، حيث يُحتفظ به للمناسبات ، لا يُقفل أبداً ، فإنه سيستخدم لفافة عادية وفظة من حبل اشتراه من السوق ليحل محل ذلك الخيط ويقود عالم الأحياء الذي يتهيأ ، في هذه اللحظة ، للدخول إلى مملكة الأموات . وباعتباره موظفاً في المحفوظات العامة ، فإن دون جوزيه يتمتع بكل الصلاحية الشرعية للوصول إلى أي وثيقة من وثائق السجل المدني ، ولا حاجة إلى

التكرار ، بأن هذا هو جوهر عمله ، ولهذا قد يستغرب البعض من أنه ، حين لحظ غياب البطاقة ، لم يقل للمأمور المعني ، سأدخل داخلاً للبحث عن بطاقة امرأة ماتت . فالمسألة ليست في إعلان ذلك وحسب ، إذ عليه أن يقدم مبرراً ذا سند إداري ومنطق بيروقراطي ، لأن المأمور لن يمتنع عن سؤاله ، ولماذا تريدها ، ولا يمكن لدون جوزيه أن يرد عليه ،لكي أتأكد من موتها ،فأين ستصل الأمور بالمحفوظات العامة إذا ما بدأت تنشغل في إشباع هذا النوع من الفضول أو غيره ، وهو ليس بالفضول المرضي وحسب ، وإنما هو غير منتج أيضاً . إن أسوأ ما يمكن أن تسفر عنه حملة دون جوزيه الليلية هذه هو ألا يتمكن من العثور على أوراق المرأة المجهولة في الفوضى التي تعم أرشيف الموتى . فمن المؤكد ، بادئ ذي بدء ، ولأن الأمر يتعلق بوفاة حديثة ، أن الأوراق يجب أن تكون في ما يعرف بالمدخل في اللغة المتداولة ، ولكن المشكلة تبدأ هنا في استحالة معرفة ، أين هو بالضبط مدخل أرشيف الموتى . وسيكون من التبسيط الشديد القول ، مثلما يلح بعض المتفائلين الجامحين ، بأن حيز الموتى يبدأ بالضرورة حيث ينتهي حيز الأحياء ، والعكس بالعكس ، وربما كانت الأمور في العالم الخارجي تجري ، بطريقة ما ، على هذا النحو ، حيث ليس من المألوف رؤية الموتى مختلطين مع الأحياء في الشوارع ، اللهم إلا في أحداث استثنائية ، وإن تكن ليست شديدة الاستثنائية عندما نرغب في ذلك ، مثلما هي في الكوارث الطبيعية أو النزاعات الحربية . هذا إذن ممكن الحدوث ، ليس فقط في المحفوظات العامة ، لأسباب بنيوية . إنه ممكن الحدوث ، وهو يحدث فعلاً .لقد أوضحنا من قبل بأنه بين وقت وآخر ، عندما يبدأ الاحتقان ، الذي يسببه تراكم الأموات المستمر الذي لا يمكن وقفه ، في الحيلولة دون تنقل الموظفين في الممرات ، مما يعرقل بالتالي أي قدرة على البحث عن الوثائق ، فإنه لا يعود هناك مفر من هدم الجدار الخلفي وإعادة بنائه على بُعد بضعة أمتار إلى الوراء . ومع ذلك ،

وبسـبب سـهو غيـر مقصـود من جانـبنا ، لم نذكـر في حينه ، أن هناك عاملين خبيثين يسببان ذلك الاحتقان . ففي المقام الأول ، وخلال الوقت الذي يجـري فيـه بنـاء الجدار ، لا يـكون هناك بد من أن تأخـذ بطاقـات وملفات الموتى الحديثين ، بسبب عدم وجود الحيز المخصص لها في أقصى البناء ، بالاقـتـراب بصـورة خطرة ، في هذا الجـانب ، ومـلامسـة ملفـات الأحياء المرتبة في أقصى الجزء الداخلي من الخزائن المخصصة لهم ، فينشأ عن ذلك حزامُ حالاتِ اختلاطٍ حساسة بين من لا يزالون أحياء ومن هم في عـداد الأمـوات . وفي المقـام الثاني ، عندما ينـتهي بـنـاء الجدار ومـدّ السقف ، ويصير بإمكان أرشيف الموتى أن يعود إلى وضعه الطبيعي ، فإن ذلك الاختـلاط بالذات ، ويمكن تسـميتـه بالاختـلاط الحدودي ، يجعل من المسـتحـيل ، أو من العـسـيـر جـداً على الأقل ، نـقل مجـمـل الدخـلاء ، مع الاعتـذار من هذه الكلمـة غيـر المناسبـة ، إلى ظلمـة العمق . ويضـاف بعـد ذلك إلى هاتين العقـبتين غيـر الصغيرتين ، واقع أن الكاتبين الأحدث عـهداً ، ودون أن يعلم الرئيس أو الزمـلاء بذلـك ، لا يعـيـرون اهـتـمـامـاً بين حين وآخر ، إلـى أنهـمـا يفلتان ملف أحد الموتى فـي أي مكان ، دون أن يجـهدا نفسيهما في الذهاب إلى عمق المبنى ليريا إذا ما كان هناك مجال فارغ أو لا ، سـواء لقصـور في إعدادهـما المهني أو لضـعف خطيـر في أخلاقـهمـا الشخصية . فإذا لم يكن الحظ في هذه الرزمة حليف دون جوزيه ، وما لم يسـعفـه القـدر ، فإن مغـامـرة اقتـحـام المدرسـة ، إذا مـا قورنـت بما ينتظره ، وعلى الرغم من المجازفة التي انطوت عليها ، ستبدو أشبه بنزهة .

قد يتسـاءل المرء عما سيـسـتفيده دون جوزيه من حبل طويل ، طوله مئة متـر ، إذا كان امتداد المحفوظات العامة ، بالرغم من أعمـال التـوسيـع المتتالية ، لم يتجاوز الثمانين متـراً بعد . هذا النوع من الشكوك خاص بمن يتـصـور بـأن كل شيء فـي الحـيـاة يمكن تحـقـيـقـه بالاتـبـاع الدقـيق لخط مسـتـقيم ، وأنه مـن الممكن على الدوام الذهاب من مكان إلى آخـر عـبـر

أقصر الدروب ، وربما أمكن لبعض الناس ، في العالم الخارجي ، أن يحكموا بأنهم استطاعوا عمل ذلك ، أما هنا ، حيث يتقاسم الأحياء والأموات المجال نفسه ،فلا بد في بعض الأحيان من الدوران طويلاً من أجل العثور على أحدهم ، يجب الالتفاف حول جبال من الحزم ، وأعمدة من محاضر القضايا ، وأكداس من البطاقات ، وهياكل من المخلفات القديمة ، والتقدم عبر مضائق مظلمة ، بين جدران من الورق المتسخ التي تصل إلى الأعلى ، فإن أمتاراً وأمتاراً من الحبل يجب مدّها ، وتركها إلى الخلف ، مثل أثر متعرج وبصير مخطوط على الغبار ، ولا توجد طريقة أخرى لمعرفة من أين يجب المرور ، وليست هناك وسيلة أخرى للعثور على طريق العودة . ربط دون جوزيه أحد طرفي الحبل بإحدى قوائم منضدة الرئيس ، وهو لم يفعل ذلك عن قلة احترام ، وإنما ليكسب بعض الأمتار الإضافية ، ثم ربط الطرف الآخر بكاحله ، وأفلت اللفافة وراءه ، على الأرض ، لتنسل معه في كل خطوة يخطوها ، وتقدم من أحد الممرات المركزية في أرشيف الأحياء . كانت خطته تقضي ببدء البحث في فسحة العمق ، هناك حيث يجب أن يكون ملف المرأة المجهولة وبطاقتها ، مع أن الاحتمال ضئيل ، للأسباب المعروضة آنفاً ، في أن يكون إيداعها قد تم بصورة نظامية وصحيحة . وكموظف من أزمنة أخرى ، تربى وفق المناهج القديمة وانضباطها ، كانت طباع دون جوزيه الصارمة تنفر من الاصطدام بتهاون الأجيال الجديدة ولامسؤوليتها ، فبدأ البحث من المكان الذي لا يمكن أن يكون قد أودع فيه ميت إلا بمخالفة واضحة ومستنكرة لقواعد الأرشفة الأساسية . كان يعرف أن الصعوبة الكبرى التي سيواجهها هي انعدام الضوء . فباستثناء منضدة الرئيس ، التي يتواصل فوقها وميض المصباح الأبدي الخافت ، تبقى المحفوظات كلها في العتمة ،غارقة في ظلام دامس . وإشعال مصابيح أخرى على امتداد المبنى ، بالرغم من الشحوب الذي هي فيه ، سيكون مجازفة كبيرة ، إذ يمكن لشرطي متيقظ يتجول في

الحي ، من أولئك الذين يؤرقهم أمن المجتمع ، أن يلمح من خلال النوافذ العالية الضوء الشاحب ويطلق نداء الإنذار على الفور . ولهذا لن يكون لدى دون جوزيه من إنارة سوى دائرة الضوء الخافت التي تنوس أمامه على إيقاع خطواته ، ومع ارتجاف يده التي تحمل المصباح أيضاً .فهناك فرق كبير بين المجيء إلى أرشيف الموتى خلال ساعات العمل العادية ، بحضور الزملاء ،في الخلف ، الذين على الرغم من قلة ميلهم إلى التضامن ، مثلما رأينا ، يهرعون على الدوام في حالة الخطر الحقيقي أو عند حدوث نوبة عصبية شديدة ، وخصوصاً إذا ما أمرهم الرئيس ، اذهب وانظر ما الذي جرى لذاك ، وبين المجازفة بالمجيء وحيداً ، وسط ليلة مدلهمة ،عبر سراديب الموتى هذه ، محاصراً بالأسماء ، منصتاً إلى وشوشة الأوراق ، أو دمدمة الأصوات ، فمن الذي يمكنه التمييز .

وصل دون جوزيه إلى نهاية خزائن الأحياء ، وهو يبحث الآن عن ممر ليصل إلى عمق المحفوظات العامة ، في البداية ، ووفق المخطط الذي وُضع لشغل الحيز ، كان مقرراً للممر أن يمتد على طول منتصف الأرضية ، بحيث يقسم المبنى المستطيل إلى قسمين متساويين ، ولكن انهيارات الملفات ، والتي يتواصل حدوثها مهما دفعوا كتل الأوراق إلى الوراء ، حوّلت ما يجب أن يكون ممراً مستقيماً وسريعاً إلى شبكة معقدة من الدروب والمسالك ، حيث تبرز في كل لحظة العوائق والدروب المسدودة . في النهار ، عندما تكون كل الأنوار مضاءة ، يكون أسهل نسبياً على الباحث أن يحافظ على التوجه الصحيح ،فيكفيه أن يمضي متيقظاً، محترساً ، وأن ينتبه إلى اتباع السبل التي يرى فيها قدراً أقل من الغبار ، فهذه هي العلامة التي تدل على كثرة المرور من هناك ، وحتى الآن ، على الرغم من بعض حالات الذعر ، وبعض القلق من التأخر ،لم تقع قط أي حالة دخل فيها موظف ولم يعد من حملته . ولكن ضوء مصباح الجيب ليس جديراً بالثقة ، ويبدو أنه يختلق ظلالاً من تلقاء نفسه ، وقد كان

على دون جوزيه ، الذي لا يجرؤ على استخدام مصباح المدير ، أن يشتري مصباحاً من تلك المصابيح الحديثة ، شديدة القوة ، والتي يمكن لها أن تنير حتى نهاية العالم . صحيح أن الخوف من الضياع لم يكن يثبط من عزيمته كثيراً ،وكان الشدّ الدائم للحبل المربوط بكاحله يطمئنه إلى حد ما، ولكنه إذا ما راح يلف ويدور هنا ، ويمشي في دوائر ، ويتعثر باللفافة، فإنه سينتهي إلى عدم القدرة على أن يخطو خطوة إضافية واحدة ، وسيضطر إلى العودة إلى الوراء ، للبدء من جديد . وكان قد اضطر أحياناً إلى عمل ذلك لأسباب أخرى ، حين ينحشر الحبل ، وهو حبل رفيع ،بين جبال الورق ويعلق هو في الزوايا ، ويبقى هناك دون قدرة على التحرك إلى الأمام أو إلى الوراء . بسبب كل هذه المشاكل والعوائق ، يمكن إدراك أنه لا يمكن للتقدم إلا أن يكون بطيئاً ،وأن معرفة دون جوزيه بطبوغرافية المكان لا تكاد تفيده في شيء ، وخصوصاً الآن بالذات وقد انهالت كومة ضخمة من الملفات سدت على ارتفاع قامة ما كان له مظهر طريق مؤكد ،مثيرة غمامة كثيفة من الغبار ، يحوم العث في وسطها مفزعاً ،وشبه شفاف على ضوء المصباح . دون جوزيه يشمئز من هذه الحشرات التي يمكن القول للوهلة الأولى بأنها وُضعت في العالم للزينة ، مثلما يشمئز من اللواحس التي تتكاثر هنا أيضاً ،فهي ،جميعها، الكائنات الشرهة المسؤولة عن تلف الكثير من الذاكرة ، ذاكرة أبناء كثيرين عن آبائهم ، والكثير من الأملاك المورثة التي سقطت في أيدي الدولة النهمة بسبب نقص الأهلية القانونية للورثة ، على الرغم من الأيمان المغلظة بأن الوثيقة التي تُثبت ذلك قد أُكلت ،لُوثت ، قُرضت ، التُهمت من قبل مملكة الحيوان التي تعيث فساداً في المحفوظات العامة ، وأن هذا الأمر يجب أن يؤخذ في الاعتبار ولو لمجرد الدافع الإنساني ، ولكن ليس هناك لسوء الحظ من هو قادر على إقناع وكيل الأرامل واليتامى بأن الواجب يفرض عليه أن يقف إلى جانبهم ، ولكنه ليس موجوداً ،فإما أن

تظهر الوثيقة أو لا يكون هناك ميراث . أما بالنسبة للفئران ، فلا حاجة إلى الحديث عن قدرتها التخريبية . ولكن ، على الرغم من الأضرار التي تُحدثها ، فإن لهذه القوارض جانبها الإيجابي ، فلو أنها لم تكن موجودة لتفزرت المحفوظات العامة في أماكن اتصال جدرانها ، أو لكان لا بد من مضاعفة طولها . وقد يفاجأ مراقب غافل لعدم تكاثر مستوطنات الفئران هنا إلى حد القضاء التام على الملفات ، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار الاستحالة الأكثر من جلية لعملية تطهير فعالة مئة بالمئة . وتفسير ذلك ، مع أن هناك من يشكك بصحته الكاملة ، هو في عدم وجود ماء أو رطوبة جوية كافية ، ولأن هذه الحيوانات محكومة بحمية جافة في طعامها في الوسط الذي اختارته لحياتها أو حيث ألقى بها سوء الحظ ، فقد أدى ذلك إلى ضمور ملحوظ في العضلات التناسلية مع نتائج سلبية جداً في ممارستها الجماع . ولمعارضة هذه المحاولة في التفسير ، هناك من يصر على التأكيد بأنه لا علاقة للعضلات بذلك ، مما يعني بقاء الجدل مفتوحاً .

في أثناء ذلك ، كان دون جوزيه المغطى بالغبار ، وبأسمال ثقيلة من نسيج العنكبوت ملتصقة بشعره وكتفيه ، قد وصل أخيراً إلى الفسحة الخاوية بين آخر الأوراق المؤرشفة وجدار العمق ، حيث يفصل بينهما حوالي ثلاثة أمتار تشكل ممراً غير منتظم ، يزداد ضيقاً مع مرور كل يوم ، ليصل ما بين الجدارين الجانبيين . الظلام في هذا المكان مطبق بالمطلق . والضوء الخارجي الضعيف الذي يمكن له أن يتسرب من طبقات الأوساخ التي تغطي ، من الداخل والخارج ، الكوى الجانبية ، وخصوصاً الأخيرة منها في كل جانب ، وهي الأقرب إلى المكان ، لا يتمكن من الوصول إلى هنا بسبب التراكم العمودي لحزم الوثائق التي تكاد تصل إلى السقف . أما جدار العمق الخلفي ، بكامله ، فهو ، لسبب لا يمكن تفسيره ، أعمى ، أي أنه يخلو حتى من كوة يمكنها أن تساعد الآن ضوء المصباح الشحيح . لم يستطع أحد فهم عناد جمعية المهندسين التي

عارضت ، متذرعة بتبرير جمالي ضئيل الأهمية ، إجراء تعديل على التصميم التاريخي والسماح بفتح نوافذ في الجدار كلما تطلب الأمر هدمه وإعادة بنائه ، بالرغم من أنه يمكن لأي جاهل في الموضوع أن يدرك أن الأمر لا يعدو أن يكون إرضاء لحاجة وظيفية . كان يجب على أولئك المهندسين أن يكونوا هنا الآن ، ليعرفوا بأنفسهم كم يكلف هذا من مشقة ، تمتم دون جوزيه بذلك متأففاً .كانت أكداس الأوراق المركونة على هذا الجانب وذاك من الممر المركزي ذات ارتفاعات مختلفة ، ويمكن لبطاقة المرأة المجهولة وملفها أن يكونا في أي واحدة منها ، مع احتمال أكبر ، على أي حال ، في أن يُعثر عليهما في الأكوام الواطئة ، هذا إذا كان قانون بذل الحد الأدنى من الجهد هو المفضل للكاتب المكلف بالتخزين . ولسوء الحظ أننا لا نعدم في إنسانيتنا التائهة هذه أرواحاً شديدة الالتواء ، بحيث لا يكون مستغرباً أن تخطر للموظف الذي حفظ ملف وبطاقة المرأة المجهولة ، الفكرة الخبيئة ،لمجرد الضغينة المجانية، بإسناد السلّم اليدوي الضخم المستخدم هنا إلى أعلى كومة من الأوراق ، ووضع الملف فوقها ، في القمة ، فهكذا هي شؤون هذا العالم .

بدأ دون جوزيه البحث بمنهجية ، ودون تسرع ، حتى أنه تذكر كما يبدو إيماءات وحركات الليلة التي أمضاها في سقيفة المدرسة، عندما كان من المحتمل أن تكون المرأة المجهولة ما تزال على قيد الحياة . لكن الغبار الذي يغطي الأوراق هنا أقل بكثير ، وهو ما يمكن فهمه بسهولة إذا ما أخذنا في الاعتبار إنه لا يكاد يمر يوم إلا وتُجلب فيه ملفات وبطاقات أشخاص متوفين ، وهو ما يعادل القول ، بلغة التخيل ، ولكن باستيباء واضح ، إن الموتى الذين في أقصى المحفوظات العامة للسجل المدني يبقون نظيفين دوماً . وفي الأعلى فقط ،حيث الأوراق تكاد تبلغ السقف ، مثلما قيل سابقاً ،يتهادى الغبار الذي يغربله الزمن ليستقر بهدوء فوق الغبار الذي غربله الزمن ، إلى حد أنه

لا بد من نفض أغلفة الملفات الموجودة في الأعلى وهزها بقوة ، إذا أردنا أن نعرف من هم أصحابها . وإذا لم يجد دون جوزيه ما يبحث عنه في المستويات السفلى ، فلا بد له من التضحية مجدداً بتسلق سلم يدوي ، ولكنه لن يكون بحاجة في هذه المرة إلى البقاء متسلقاً لأكثر من دقيقة واحدة ، ولن يكون لديه بالتالي متسع من الوقت ليصاب بالدوار ، فبنظرة واحدة سيكشف له ضوء المصباح إذا ما كان الملف قد وُضع هناك خلال الأيام الأخيرة . مقدراً أن وفاة المرأة المجهولة ، قد جرت ، على الأغلب ، منذ وقت قصير ، قبل أيام قليلة أو بعد أيام قليلة ، حسب اعتقاد دون جوزيه ، من فترتي تغيبه عن العمل ، خلال أسبوع الأنفلونزا أولاً ، وبعد ذلك الإجازة القصيرة ، ويمكن له مراجعة الوثائق في كل كومة بسرعة كبيرة ، وحتى لو كان موت المرأة قبل ذلك ، أي بعد اليوم الذي وقعت فيه بطاقة المرأة بين يدي دون جوزيه مباشرة ، فإن الزمن الذي انقضى ليس كبيراً بحيث يكون الملف محفوظاً الآن تحت عدد كبير من الملفات الأخرى . هذا التأمل المتكرر للأوضاع التي قد تستجد ، وهذا التفكير المتواصل ، وهذه الموازنة التفصيلية بين ما هو واضح وما هو غائم ، ما هو مباشر وما هو مختلط ، ما هو نظيف وما هو متسخ ، كانت تمر كلها ، مثلما نرويها تماماً ، في رأس دون جوزيه . وقد يبدو الزمن الذي استغرقناه في شرحها ، أو بعبارة أدق ، في استنساخها ، مبالغاً فيه ظاهرياً ، وهذه هي النتيجة الحتمية ، ليس لتعقيد العوامل المذكورة ، سواء في المضمون أو في الشكل ، وحسب ، وإنما كذلك لطبيعة الدوائر الذهنية شديدة الخصوصية لكاتبنا العمومي . وهو سيمر الآن بتجربة عصيبة . اقترب دون جوزيه من أحد الجدارين الجانبيين ، متقدماً ، خطوة خطوة ، على طول الممر الضيق المكون ، كما أسلفنا ، من أكداس الوثائق ومن الجدار الخلفي . في البداية ، وبصورة مجردة ، لم يخطر ببال أحد أن اعتبار ممر

كهذا ضيقاً ، بعرضه المريح الذي يصل إلى قرابة الثلاثة أمتار ، ولكن إذا ما جرى التفكير بهذا العرض في علاقته بطول الممر الذي ، نكرر مرة أخرى ، يمتد من جدار جانبي إلى جدار جانبي ، سيكون علينا عندئذ أن نتساءل كيف أمكن لدون جوزيه ، ونحن نعرف أنه يصاب بحالات هيجان جدية من النوع النفسي ، مثلما هو أمر الدوار والشرود ، ألا يعاني حتى الآن ، في هذا الحيز المغلق والخانق ، من نوبة عنيفة من رهاب الأماكن المغلقة . وربما وجدنا التفسير في أن الظلام ، تحديداً ، لا يتيح له إدراك حدود هذا الحيز ، التي يمكن لها أن تكون هنا أو هناك ، وهو لا يكاد يرى ، أمامه ، سوى كتلة الأوراق المألوفة والمطمئنة . ولم يكن من عادة دون جوزيه المكوث طويلاً في هذا المكان قط ، فهو يصل إليه عادة ليضع فيه وثائق حياة منتهية ثم يرجع من فوره إلى طمأنينة منضدة عمله ، وإذا كان صحيحاً أنه منذ دخوله ، في هذه المرة ، إلى أرشيف الموتى ، لم يستطع التخلص من انطباع قلق ، يحيط به كحضور مجسد ، فقد نسبه إلى ذلك الخوف من المبهم والمجهول الذي يملك أشجع الشجعان الحق الإنساني في الشعور به . فدون جوزيه لم يشعر بالخوف ، بالمعنى الذي تتضمنه كلمة خوف ، حتى اللحظة التي وصل فيها إلى نهاية الممر ووجد نفسه قبالة الجدار . انحنى ليتفحص بعض الأوراق التي على الأرض تقريباً ، والتي يمكن لها أن تكون أوراق المرأة المجهولة ، وقد ألقى بها الموظف اللامبالي بإهمال ، وفجأة ، وحتى قبل أن يتاح له الوقت لتفحصها ، تخلى عن كونه دون جوزيه الكاتب في المحفوظات العامة للسجل المدني ، وعن أنه في الخمسين من عمره ، وصار الآن جوزيه صغيراً بدأ لتوه الذهاب إلى المدرسة ، إنه الطفل الذي لا يريد أن ينام لأن كابوساً ينتابه في كل ليلة ، وهو الكابوس المتسلط نفسه ، فحافة الجدار هذه ، هذا الحائط المسدود ، هذا السجن ، وهناك ، في الطرف الآخر من الممر ، مخبأ في

الظلام ، يوجد حجر صغير جداً وعادي ، مجرد حجر صغير آخذ في النمو ببطء ، لا يمكن له أن يراه الآن بعينيه ، ولكن ذاكرة الأحلام التي حلم بها تقول له إنه هناك ، إنه حجر يتضخم ويتحرك ، وكأن الحياة قد دبت فيه ، حجر يطفح من جنباته ومن أعلاه ، يصعد الجدران ويتقدم متجرجراً باتجاهه ، متكوراً على نفسه ، كما لو أنه ليس حجراً وإنما هو طين ، وكما لو أنه ليس طيناً وإنما هو دم متخثر . ويخرج الطفل من الكابوس صارخاً عندما تلمس الكتلة الدنسة قدميه ، وعندما يكون طوق "غاروتي"[1] الغم على وشك أن يخنقه ، ولكن دون جوزيه ، ويا له من مسكين ، لا يستطيع الاستيقاظ من حلم لم يعد حلمه . ينكمش بملاصقة الجدار مثل كلب مذعور ، يوجه بيده المرتجفة ضوء المصباح نحو الطرف الآخر من الممر ، ولكن الضوء لا يصل إلى ذلك البعد مع ذلك ، ويبقى في منتصف الطريق ، حيث يوجد الممر المؤدي إلى أرشيف الأحياء تقريباً . يفكر في أنه إذا ما ركض بسرعة سيتمكن من الإفلات من الحجر الذي يتقدم ، ولكن الخوف يقول له ، كن حذراً ، فمثلما تعرف أنه ليس متوقفاً هناك ، بانتظارك ، فسوف تقع في فم الذئب . كان تقدم الحجر في الحلم يتم بمرافقة موسيقى غريبة تبدو وكأنها متولدة من الهواء ، أما هنا فالصمت مطبق ، شامل ، وكثيف إلى حد يبتلع معه أنفاس دون جوزيه ، مثلما تبتلع الظلمة ضوء المصباح . وقد ابتلعتها بالكامل في هذه اللحظة بالذات . كان ذلك كما لو أن الظلمة قد تقدمت لترتطم ، مثل هبة ريح ، بوجه دون جوزيه . وكان كابوس الطفل قد انتهى مع ذلك . أما بالنسبة إليه ، وليفهم من هو قادر على فهم الروح الإنسانية ، فإن واقع عدم رؤيته جدران الحبس ، القريبة منها والبعيدة ، كان كما لو أنها غير موجودة ، وكما لو أن الحيز قد اتسع ، حراً إلى ما لانهاية ، وكما لو أن الأحجار ليست سوى الفلز

(١) الغاروتي، garrote : المِختَق، وهو طوق حديدي كان يُستخدم في تنفيذ أحكام الإعدام خنقاً في العصور الوسطى.

الخـامل الذي تتكون منه ، وكـمـا لو أن الماء هو ببسـاطة علة وجـود الطين ، وكمـا لو أن الدم يجري في عـروقه فقط وليس خـارجهـا . ولم يعد كابوس الطفولة هو ما يرعب دون جوزيه الآن ، فـمـا يشلّه خوفاً هو التفكير مرة أخرى في أنـه قد يبقى ميـتاً في هذا الركن ، مـثلما تصور ، منذ بعض الوقت ، أنه قد يسقط عن سلّم آخر ،قد يموت دون أوراق وسط أوراق الموتى ، فتسحقه الظلمة والانهيارات التي لن تلبث أن تتـهـاوى من الأعلى ، ويكتـشـفـون ذلك فـي الغـد ،لقـد تغـيب دون جوزيه عن العـمل ، أين تراه يكون ، لا بـد له أن يظهـر ، وعندمـا يأتي أحد الزمـلاء لنقل ملفات أخـرى وبطاقـات أخرى ،سـيـجده هناك ، على ضوء مصباح يدوي أفضل من مصباحه هذا الذي يخذله عندمـا يكون في أشـد الحاجة إليـه .مرت الدقـائق التي لا بد من مرورها لكي يبدأ دون جوزيه شيئاً فشيئاً في سماع صوت في داخله يقول ، يا رجل ، حتى الآن ، إذا ما أبعـدت الخوف جانـبـاً ،لم يصـبـك أي سـوء بعـد ،ها أنتذا جالس ، بكل عـافيتك ،صحيح أن مصباحك قد انطفأ ، ولكن ما حاجتك أنت إلى مصباح ، لديك الحبل المربوط إلى كاحلك ، والمثبت في طرفه الآخر بقائمة منضدة الرئيس ، إنك آمن ، مثل جنين مربوط بالحبل السري إلى رحم أمه ، وهذا لا يعني أن الرئيس هو أبوك أو أمك ، ولكن العلاقات بين الأشخاص هنا معقدة في نهاية المطاف ، وما عليك التفكير فيه هو أن كوابيس الطفولة لا تتحقق أبداً ، وأقل منها تحقق الأحلام ، وذلك الحلم عن الحجر كان مرعباً حقاً ، ولكن لا بد أن يكون له تفسير علمي مـا ،مـثلمـا حين كنت تحلم بـأنك تطيـر فـوق البسـاتين ، تعلو وتنخفض ، وتطفو بذراعين مفتوحتين ، تذكر ، كان ذلك إشارة إلى أنك تنمو ، وقد كـان للحجر وظيفتـه كذلك ، وإذا كـان لا بد من أن تعيش تجربة الرعب ، فليكن ذلك عـاجلاً أفضل من أن يكون آجلاً ، أضف إلى ذلك أن الواجب يحتم عليك أن تعـرف أن هؤلاء الموتى ليـسـوا كـذلك

جدياً ،فمن المبالغة الجهنمية إطلاق هذه التسمية على أرشيفهم ، وإذا كانت الأوراق التي بين يديك هي أوراق المرأة المجهولة ،فإنها تبقى أوراقاً وليست عظاماً ، إنها أوراق وليست لحماً متفسخاً ، وهذه هي الأعجوبة التي حققتها محفوظاتك العامة ،تحويل الحياة والموت إلى مجرد أوراق ، صحيح أنك رغبت في العثور على هذه المرأة ، ولكنك لم تصل في الوقت المناسب ، فحتى هذا الأمر لم تستطع تحقيقه ، أو ربما أنك كنت ترغب ولا ترغب ، كنت تتردد بين الرغبة والخوف مثلما يحدث لأناس كثيرين ، كان يكفيك أن تذهب إلى المالية ، ولم يعدم من ينصحك بذلك ، لقد قضي الأمر ، من الأفضل أن تتركها كائنة ، فلم يعد هناك وقت لها ونهاية وقتك أنت قادمة أيضاً.

نهض دون جوزيه ببطء وهو يتلمس الجدار المزعزع المكون من الملفات ، متوخياً الحذر كي لا ينهار عليه . وكان الصوت الذي قدم له تلك الخطبة يقول له الآن ، لا تخف يا رجل ، فالظلام الذي أنت فيه هنا ليس أكبر من الظلام الذي في جسدك ، إنهما ظلامان منفصلان بجلد ، وأراهن أنك لم تفكر في ذلك قط ، إنك تحمل معك على الدوام من مكان إلى آخر ظلمة ، دون أن يرعبك ذلك ، ومنذ لحظات كنتَ على وشك البدء بالصراخ لمجرد أنك تخيلت بعض الأخطار ، لمجرد أنك تذكرت الكابوس الذي كان يأتيك وأنت صغير ، عليك يا صديقي العزيز أن تتعلم العيش مع ظلمة الخارج مثلما تعلمت العيش مع ظلمة الداخل ، والآن انهض دفعة واحدة من فضلك ، خبئ المصباح في جيبك ،فهو لن يفيدك في شيء ، وخبئ الأوراق ، ما دمت مصراً على حملها معك ، بين السترة والقميص ، أو بين القميص والجلد لأنه أكثر أماناً ، وامسك الحبل بثبات ، ولفه مع كل خطوة تتقدمها حتى لا يتشابك بقدميك ، والآن هيا ، لا تكن رعديداً ،فهذا هو أسوأ الأشياء . وبينما هو ما يزال يستند بكتفه إلى الجدار برفق ، غامر دون جوزيه بالسير خطوتين خجولتين . انشقت

الظلمات مثل ماء أسود ، وراحت تنغلق وراءه ، خطوة أخرى ، ثم أخرى ، خمس أمتار من الحبل رُفعت عن الأرض وتم لفها ، من المناسب لدون جوزيه الآن أن تكون له يد ثالثة تتلمس الهواء أمامه ، ولكن العلاج بسيط ، يكفيه أن يرفع يديه الاثنتين إلى مستوى وجهه ، إحداهما تَلُّف والأخرى تُلَّف ، فهذه هي بداية اللفافة .

كان دون جوزيه على وشك الخروج من الممر ، بضع خطوات أخرى ويكون بمنجى من هجوم آخر لحجر الكابوس ، لقد بدأ الحبل يقاوم قليلاً الآن ، ولكنها علامة طيبة ،فهي تعني أنه عالق بمحاذاة الأرض في زاوية الممر المؤدي إلى أرشيف الأحياء . ولكن الغريب أنه طوال الطريق ، وحتى وصوله ، كان كما لو أن هناك من يلقي عليه الأوراق من فوق ، فقد كانت تسقط أوراق وأوراق على رأس دون جوزيه ، ببطء ، واحدة ، أخرى ، أخرى ، كوداع . وعندما وصل أخيراً إلى منضدة الرئيس ، وقبل أن يفك الحبل ، أخرج من تحت القميص الملف الذي التقطه عن الأرض ، وعندما فتحه ورأى أنه ملف المرأة المجهولة ، كان انفعاله شديداً لم يُتح له سماع ضجة باب المحفوظات ، كما لو أن هناك من خرج منها للتو .



كان دون جوزيه قد تعلم مسألة عدم تطابق الزمن النفسي مع الزمن الرياضي بالطريقة نفسها التي أحرز بها في حياته بعض المعارف الأخرى متنوعة الفوائد ، والفضل في ذلك يعود في المقام الأول ، بالطبع ، إلى معايشاته الخاصة ، فبالرغم من انه لم يتعدَ قط كونه كاتباً عادياً ، إلا أنه ليس بالشخص الذي يمضي في هذا العالم لمجرد رؤية الآخرين يمضون فيه وحسب ، فهناك التأثير التكويني لعدد من الكتب والمجلات العلمية الجديرة بالثقة ، أو بالإيمان في هذه المناسبة ،بل ويمكننا أن نذكر كذلك بعض الروايات التخيلية من النوع التأملي الشعبي ،حيث يتم التطرق إلى الموضوع نفسه بأساليب وإضافات تخيلية مختلفة . ولكنه لم يشعر في أي مناسبة سابقة بالانطباع الحقيقي ، الموضوعي ، الذي لا يقل مادية عن تقلص عضلي مفاجئ ، للاستحالة الفعلية لقياس هذا الزمن الذي يمكننا تسميته زمن الروح ، مثلما شعر به في اللحظة التي نظر فيها مرة أخرى ، وقد صار في البيت ، إلى بطاقة وفاة المرأة المجهولة ، وأراد ، بصورة غامضة ، أن يحدد موقعها في الزمن الذي انقضى منذ أن بدأ بالبحث . وكان يمكن له الرد على السؤال القائل ،ما الذي كنتَ تفعله في ذلك اليوم ، بأن يقدم إجابة فورية عملياً ، إذ يكفيه أن ينظر إلى التقويم ، وأن يفكر باعتباره دون جوزيه ، الموظف في المحفوظات الذي كان غائباً عن العمل بسبب المرض ،

ليقول ، في ذلك اليوم كنتُ طريح الفراش ، مصاباً بالأنفلونزا ، ولم اذهب إلى العمل ، ولكنه إذا ما سُئل بعد ذلك ، اربط الأمر الآن بنشاطك في التحري ، وقل لي متى حدث ذلك ، فسيكون عليه عندئذ أن يراجع دفتر الملاحظات الذي يخبئه تحت الفراش ، ويرد ، كان ذلك بعد يومين من اقتحامي المدرسة . وعملياً ، باعتماد تاريخ الوفاة المدون على البطاقة التي تحمل اسمها ، فإن المرأة المجهولة قد ماتت بعد يومين من الحدث المؤسف الذي حوّل دون جوزيه النزيه حتى ذلك الحين إلى مجرم ، ولكن هذه التأكيدات المتقاطعة ، تأكيدات الموظف الكاتب المتقاطعة مع تأكيدات الباحث ، وتأكيدات الباحث المتقاطعة مع تأكيدات الكاتب ، وهي في الظاهر أكثر من كافية للربط بين الزمن النفسي لأحدهما والزمن الرياضي للآخر ، لم توفر الطمأنينة لهذا أو ذاك من الإحساس ببلبلة دوارية . لم يكن دون جوزيه في أعلى درجات سلم مرتفع جداً ، ينظر إلى أسفل ويرى كيف أن هذه الدرجات آخذة بالابتعاد أكثر فأكثر ، وتزداد ضيقاً إلى أن تُختزل في نقطة عند ملامستها الأرض ، ولكن حالته كانت كما لو أن جسده ، بدلاً من أن يتعرف على ذاته واحداً وكاملاً في تعاقب اللحظات ، يجد نفسه موزعاً على امتداد ما تستغرقه هذه الأيام الأخيرة ، ونعني الاستغراق النفسي أو الذاتي ، وليس الرياضي أو الحقيقي ، ومعه يتقلص ويتمدد . إنني سخيف وأخرق تماماً ، كان دون جوزيه يؤنب نفسه ، فاليوم يتألف من أربع وعشرين ساعة منذ أراد أن يكون كذلك ، والساعة تتضمن الآن وكانت تتضمن على الدوام ستين دقيقة ، والستون ثانية في الدقيقة هي كذلك منذ الأزل ، وإذا ما بدأت ساعة بالتأخير والتقديم فليس ذلك لخلل في الزمن ، وإنما في الآلة ، ولهذا لا بد أن يكون نابضي معطوباً . ابتسم للفكرة برخاوة ، ليس الخلل ، حسب ما أعرفه ، في آلة الزمن الواقعي ، وإنما هو في الآلية النفسية التي تقيسه ، وما يتوجب عليّ عمله هو أن أجد مختصاً نفسانياً ليصلح لي مسنناتي . ابتسم مرة أخرى ، ثم عاد إلى إبداء الجدية ،

هناك حل سهل للقضية ، بل ما هو أكثر من ذلك ، إذ أنها انحلّت من تلقاء نفسها ،فالمرأة ماتت ، ولم يعد بالإمكان عمل شيء ، سأحتفظ بالملف والبطاقة إذا ما أردتُ الإبقاء على ذكرى ملموسة من هذه المغامرة ، وسيكون ذلك بالنسبة إلى المحفوظات العامة كما لو أن المرأة لم تولد في الأصل ، وربما لن يحتاج أحد إلى هذه الأوراق ، ويمكن لي أن أتركها كذلك في أي مكان من أرشيف الموتى ، عند المدخل ، إلى جانب أقدم الأموات ، فسيان تركها هنا أو هناك ، والقصة متشابهة بالنسبة للجميع ،ولدت ، ماتت ، ومن ذا الذي سيهتم الآن بمن كانت ، فالأبوان ، إذا كانا يحبانها ، سيبكيانها لبعض الوقت ، ثم يقل بكاؤهما فيما بعد ، ثم يتوقفان بعد ذلك عن البكاء ، هذا هو المعتاد ، والرجل الذي طُلقت منه لن يكترث ،صحيح أنها قد تكون على علاقة عاطفية ، أو عاشرت أحدهم ، أو قد تكون على وشك الزواج مرة أخرى ، ولكن هذه القصة ستكون قصة مستقبل لا يمكن لها أن تعيشه ، فليس هناك في العالم من يكترث للقضية الغريبة للمرأة المجهولة . كان الملف والبطاقة أمامه ، وكذلك الثلاث عشرة بطاقة مدرسية ، والاسم نفسه مكرراً ثلاث عشرة مرة ، واثنتا عشرة صورة مختلفة للوجه نفسه ، صورة منها مكررة ، ولكنها جميعها صور ميتة في الماضي ، ميتة قبل أن تموت المرأة التي ستصير إليها ، إن الصور القديمة تخدعنا كثيراً ،فهي توهمنا بأننا أحياء فيها ، وهذا غير صحيح ، لأن الشخص الذي ننظر إليه فيها لم يعد موجوداً ، ولو كان بمقدوره أن يرانا ، فلن يتعرف على نفسه فينا ، وسيقول ، من هذا الذي ينظر إليّ بوجه محزون . عندئذ تذكر دون جوزيه فجأة أن هناك صورة أخرى ، تلك التي أعطته إياها سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ، وعلى غير انتظار ، وجد الجواب على السؤال الذي قد يطرحه من يمكن له أن يهتم بالقضية الغريبة للمرأة المجهولة .

لم ينتظر دون جوزيه حتى يوم السبت . ففي اليوم التالي ، وبعد إغلاق

المحفوظات العامة ، ذهب إلى المصبغة ليستعيد الملابس التي أخذها للتنظيف ، سمع وهو شارد الذهن المستخدمة المُدقِقَّة تقول له ، تمعن جيداً في هذا الرفو المتقن ، لاحظ ، مرّ بأصابعك عليه وقل لي إذا كنت تلحظ أي فرق ، يبدو وكأن شيئاً لم يحدث للبنطال ، هكذا يتكلم عادة أولئك الذين يرضون بالمظاهر . دفع دون جوزيه الأجر ، وضع اللفافة تحت إبطه ومضى إلى بيته ليبدل ملابسه. سيزور سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، ويريد الظهور بمظهر نظيف ولائق ، مستفيداً ، ليس فقط من عملية الرفو المتقنة ، وهي تستحق الإطراء فعلاً ، وإنما كذلك من خط البنطال الدقيق ، وكيّ القميص الباهر ، والاستعادة الإعجازية لربطة العنق . وكان مستعداً للخروج عندما مرت فكرة مَرَضية في رأسه ، والرأس هو ، على حدّ علمه ، العضو الوحيد المفكر في خدمة الجسم ، وماذا إذا ما كانت سيدة الشقة اليمنى من الطابق الأرضي قد ماتت أيضاً . والواقع أنها لم تكن تبيع صحة ، أضف إلى ذلك أن المرء لا يحتاج لكي يموت إلا أن يكون حياً ، والسيدة صارت في سن . . . وتخيل نفسه يقرع الجرس ، مرة ، ثم أخرى ، وبعد إلحاح طويل سمع باب الشقة اليسرى من الطابق فوق الأرضي يُفتح وأطلت منه امرأة قائلة ، وقد أزعجتها الضجة ، لا تُتعب نفسك ، فليس هناك أحد ، أهي خارج البيت ، لقد ماتت ، أتقولين ماتت ، أجل ، بالضبط ، ومتى حدث ذلك ، منذ حوالي خمسة عشر يوماً ، ومن تكون حضرتك ، أنا من المحفوظات العامة للسجل المدني ، يبدو إذن أن عملكم لا يسير على ما يرام ، فأنت من المحفوظات ولا تعرف مع ذلك أنها ماتت . اعتبر دون جوزيه نفسه لجوجاً ولكنه آثر أن يحلّ القضية هنا بالذات ، بدلاً من الذهاب لتحمل سفاهة المرأة التي تسكن الشقة اليسرى من الطابق فوق الأرضي . سيدخل إلى المحفوظات ويتفحص فهرس البطاقات ليتأكد من الأمر في أقل من دقيقة ، ولا بد أن تكون عاملتا التنظيف قد أنجزتا عملهما في هذه الوقت ، فهما لا تحتاجان إلى وقت طويل ، إذ أن عملهما يقتصر على إفراغ سلال المهملات ، وكنس الأرض ومسحها حتى الخزائن التي وراء

منضدة الرئيس ، ومن المستحيل إقناعهما ، بالحسنى أو بالإكراه ، على المضي أبعد من ذلك ، فهما تخافان ، وتقولان إنهما لن تفعلا ذلك ولو ماتتا ، ماذا سنفعل لهما ،فهما أيضاً ممن يرضون بالمظاهر . بعد أن أخرج بطاقة المرأة المجهولة ليتذكر اسم سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، عرابتها في العماد ،فتح دون جوزيه باب المحفوظات بكل حذر وتفحص المكان ، ومثلما توقع ، لم تكن عاملتا التنظيف هناك ، دخل ، ومضى مسرعاً إلى درج البطاقات وبحث عن الاسم ، وقال ، ها هي ، ثم تنفس الصعداء . رجع إلى البيت ، انتهى من ترتيب هندامه وخرج . من أجل ركوب الحافلة التي ستقله إلى مقربة من بيت سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ، عليه أن يذهب إلى الساحة المقابلة للمحفوظات ، فموقف الحافلة هناك . وعلى الرغم من تقدم الغروب ، كان ما يزال يطفو فوق المدينة الكثير من ضوء النهار المتبقي في السماء ، لن يبدأ إشعال مصابيح الإنارة العامة قبل عشرين دقيقة على الأقل . وقف دون جوزيه ينتظر الحافلة مع أناس آخرين ، وهو لن يستطيع على الأرجح ركوب أول حافلة تمر . وكان ذلك ما حدث بالفعل . ولكن حافلة ثانية ظهرت في الحال ولم تكن ممتلئة . صعد دون جوزيه في الوقت المناسب للحصول على مقعد إلى جانب نافذة . نظر خارجاً ،متأملاً كيف كان تحلل الضوء في الجو ، بتأثير بصري غير عادي ، يضيء واجهات المباني بلون مائل إلى الحمرة ، كما لو أن الشمس بالنسبة لكل واجهة منها تولد في تلك اللحظة . وهناك كانت المحفوظات العامة ، ببوابتها القديمة جداً ، والدرجات الحجرية الثلاث السوداء المؤدية إلى المدخل ، والنوافذ الخمس المتطاولة في واجهتها الأمامية ، والعقار كله يبدو كطلل ثابت في الزمن ، كما لو أنهم قد حنطوه بدل أن يرمموه عندما استدعى التآكل المادي ذلك . كانت إحدى العرقلات المرورية تحول دون انطلاق الحافلة . وأحس دون جوزيه بالضيق ، فهو لا يريد الوصول في وقت متأخر إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي . فعلى الرغم من الحديث الذي دار بينهما ، وكان مليئاً وصريحاً ،

وبالرغم من تبادلهما الأسرار ، منها ما هو غير متوقع من شخصين تعارفا لتوهما ، إلا أنهما لم يصلا إلى درجة من الحميمية تسمح له طرق بابها في أوقات غير مواتية . نظر دون جوزيه مرة أخرى إلى الساحة ، كان الضوء قد رحل ، وتحولت واجهة المحفوظات العامة فجأة إلى اللون الرمادي ، ولكنه رمادي ما يزال منيراً يبدو وكأنه يخفق ، يهتز ، وحدث في تلك اللحظة ، في الوقت نفسه الذي انطلقت فيه الحافلة أخيراً ،منحرفة ببطء نحو مسرب الدوران ، أن صعد رجل طويل ، ضخم ، أدراج المحفوظات ، وفتح الباب ودخل . فهمهم دون جوزيه ، إنه الرئيس ، ما الذي يفعله في المحفوظات في مثل هذه الساعة . نهض بفظاظة من المقعد ، مدفوعاً برعب مفاجئ ومبهم ، قام بحركة متعجلة للخروج ، مما جعل الراكب الذي بجانبه يومئ إيماءة مفاجأة عظيمة واستياء ، ثم عاد للجلوس مضطرباً . كان يعرف أن هناك ما يدفعه لأن يهرع إلى البيت ، كما لو أن عليه حمايته من خطر ، وهو منطق غير معقول دون ريب . فلو افترض أن الرئيس لص ، وهذا غير معقول آخر ، فإنه لن يدخل من بوابة المحفوظات ليصل إلى بيته . ولكن من غير المعقول كذلك الظن أن الرئيس قد رجع ، بعد انتهاء الدوام الرسمي ، إلى المحفوظات حيث لا ينتظره أي عمل ، مثلما تبين في هذه القصة من قبل ، ويمكن لدون جوزيه أن يضع يده في النار لتأكيد ذلك . والافتراض بأن الرئيس يذهب إلى المحفوظات لاداء ساعات عمل إضافية ، هو أشبه إلى هذا الحد أو ذاك ، بتخيل دائرة مربعة. غادرت الحافلة الساحة ، وواصل دون جوزيه البحث عن الأسباب العميقة التي دفعته إلى التصرف بتلك الطريقة المشوشة . وانتهى إلى الجزم بأن السبب يكمن في أنه اعتاد ،منذ سنوات ، على أنه المقيم الليلي الوحيد في مجمع المباني المؤلف من المحفوظات العامة وبيته ، إذا كان هذا البيت جدير بأن يطلق عليه اسم مبنى ، وربما كانت التسمية مناسبة من وجهة النظر اللغوية الصارمة ، فالمبنى هو كل شيء جرى بناؤه ، ولكنها تسمية غير ملائمة بجلاء لدى المقارنة مع ذلك الوقار الهندسي الذي تنضح به الكلمة كما يبدو ،

وخصوصاً عندما ننطق بها .وفكر في أن وقع رؤية الرئيس يدخل إلى المحفوظات سيكون مثل رؤيته ، عند عودته إلى البيت ، جالساً على مقعده . الطمأنينة النسبية التي بثتها هذه الفكرة في دون جوزيه ، دون حساب الاعتبارات المتصلة بالموضوع والمُحيِّرة أخلاقياً ، والاستحالة الفيزيائية المادية لتسلل الرئيس إلى حجرات مرؤوسيه الحميمة ، والوصول إلى حد استخدام كرسيه ،انهارت فجأة عندما تذكر البطاقات المدرسية للمرأة المجهولة ، وتساءل إذا ما كان قد خبأها تحت الفراش ، أو أنه تركها ، بإهمال ، مكشوفة فوق الطاولة . فحتى لو كان بيته أميناً جداً مثل صندوق خزنة مصرف ، ومزوداً بأقفال مشفرة وتصفيح مثبت في الأرضية والسقف والجدران ، فإن البطاقات يجب ألا تبقى على الإطلاق ظاهرة للعيان . وواقع أنه ليس هناك من يمكنه أن يراها ليس بالعذر المقبول لما اقترفه من إهمال بتركها مكشوفة ، ونحن نعرف ، رغم جهلنا ، المدى الذي صار بإمكان التقدم العلمي الوصول إليه، فبالطريقة نفسها التي يمكن بها للموجات ، التي لا يراها أحد ، أن تحمل الأصوات والصور في الهواء والرياح ،قافزة عن الجبال والأنهار ، ومجتازة المحيطات والصحارى ، ليس هناك ما هو استثنائي في أن يكونوا قد اكتشفوا أو اخترعوا ، أو سيتم ذلك في الغد ، موجات قارئة وموجات تصويرية قادرة على اختراق الجدران وتسجيل أحوال وأسرار وحياءات حياتنا اليومية التي نظنها في مأمن من الكشف ، وبثها إلى الخارج . أما إخفاؤها ، أي الأحوال والأسرار والحياءات ، تحت الفراش ، فما زال أكثر أساليب الإخفاء أماناً، وخصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار الصعوبة المتزايدة التي تواجهها عادات اليوم حين تريد فهم عادات الأمس . مهما كانت خبرة تلك الموجات القارئة وتلك الموجات التصويرية ، فإن دس الأنف بين فراش وسطح سرير هو أمر لا يمكن له أن يدور في رأسها .

من المعروف أن أفكارنا ، سواء القلقة منها أو الراضية ، وغيرها مما هي ليست هذه ولا تلك ، ينتهي بها الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى التعب والضجر من

نفسها ، إنها مسألة منح وقت للوقت فقط ، وتركها مستسلمة للهذيان الكسول الذي يأتيها بصورة طبيعية ، وعدم الإلقاء إلى المحرقة بأية تأملات جديدة ، مثيرة للسخط أو الجدل ، وتوخي ، قبل كل شيء ، أقصى درجات الحذر من التدخل في كل مرة ضد فكرة مستعدة بذاتها إلى الشرود في تشعب جذاب ، فرعي ، تحويل في الاتجاه . أو التدخل ، أجل ، ولو بالحث بدفعة رقيقة على الظهر ، وكأننا ننصح أفكارنا ، امضِ من هناك ، فأنت تتخذين مساراً صحيحاً .وكان هذا هو ما فعله دون جوزيه عندما برزت في ذهنه تلك الفنتازيا غير المعقولة والتي أوحت بها العناية الإلهية ،عن موجة الصورة والموجة القارئة ، واستسلم فوراً للتخيلات ، دفعها لأن تُظهر له الموجات الغازية وهي تفتش في كل أرجاء الغرفة في محاولة للعثور على البطاقات ، التي تبين له في النهاية أنه لم يتركها فوق الطاولة ، وكانت الموجات حائرة وخجلة لأنها لم تستطع تنفيذ الأمر الذي تلقته ، أنتِ تعلمين ، إما أن تعثري على البطاقات وتقرئيها وتصوريها وإلا فإننا سنستغني عنك ونعود إلى أساليب التجسس التقليدية . وفكر دون جوزيه مع ذلك بالرئيس ، ولكنها كانت فكرة فضلة ، إنها ببساطة الفكرة النافعة للعثور على تفسير مقبول لواقعة عودته إلى المحفوظات خارج أوقات العمل الرسمية ،لقد نسي شيئاً هو بحاجة إليه ، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر . ودون وعي منه ، كرر الشطر الثاني من الجملة بصوت عالٍ ، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر ، مستثيراً بذلك للمرة الثانية ريبة الراكب الذي بجانبه ، ولا بد أن أفكار هذا الراكب ، على ضوء الحركة التي جعلته ينتقل من مكانه ، صارت جلية وواضحة ، هذا الشخص مجنون ، نراهن بأنه فكر بهذه الكلمات أو بما يشبهها . لم يلحظ دون جوزيه انسحاب جاره من المقعد ، وانتقل دون انقطاع ، إلى التفكير بسيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، فها هو ذا يراها أمامه ، عند عتبة الباب ، هل تتذكرينني ، أنا من المحفوظات العامة ، أتذكرك جيداً ، إنني قادم بخصوص القضية السابقة ،

هل عثرتَ على ابنتي بالعماد ، لا ، لم أجدها ، أو بكلمة أدق ، بلى ، أجل ، لا ، أعني أنني أريد التحدث مع حضرتك ، إذا لم يكن لديك مانع ، وإذا كانت لديك لحظة فراغ ، تفضل بالدخول ، وأنا أيضاً لدي أمر أود أن أخبرك به ، من مثل هذه الكلمات تقريباً ،كانت الجمل التي تبادلها دون جوزيه وسيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، عندما فتحت الباب ورأته ، آه ، أهذا أنت ، هتفت بذلك مشدوهة ، فلم يستطع بالتالي أن يسألها ، هل تتذكرينني ، أنا من المحفوظات العامة ، ولكنه لم يستطع كذلك أن يكبح نفسه من توجيه السؤال الملح ، والضاغط ، إلى حد يبدو معه أن حاجتنا هي المضي في الدنيا قائلين لكل من نصادفه من نحن ، حتى عندما نكون قد سمعنا للتو ، آه ، أهذا أنت ، كما لو أن تعرفهم علينا قد أوصلهم إلى معرفتنا ولم يعد هناك المزيد لمعرفته عنا ، أو أن القليل المتبقي لا يستحق عناء توجيه سؤال جديد .

لم يكن هناك أي تبدل في الصالة الصغيرة ، والمقعد الذي جلس عليه دون جوزيه في المرة الأولى ، كان ما يزال في مكانه ، والمسافة بينه وبين الطاولة كانت هي نفسها ، وكانت الستائر تتدلى بالطريقة نفسها ، وتشكل الثنيات نفسها ، وكانت حركة المرأة أيضاً هي نفسها عندما وضعت يديها على حجرها ، اليد اليمنى فوق اليسرى ، وضوء السقف وحده هو الذي كان يبدو شاحباً بعض الشيء ، كما لو أن المصباح يشرف على نهايته . سألها دون جوزيه ، كيف هي أحوالك بعد زيارتي الأخيرة ، ثم أنّب نفسه لقلة لياقتة ، بل وللبلاهة الواضحة التي يكشف عنها ، كان عليه أن يعرف أنه لا يمكن التقيد دائماً بحرفية قواعد التربية الأساسية ، بل لا بد من أخذ الظروف بعين الاعتبار ، وموازنة كل حالة على حدة ، فلنتصور الآن أن المرأة قد ردّت عليه وهي تبتسم ابتسامة منفتحة ، لحسن الحظ إنني على ما يرام ، فمن الناحية الصحية ، أنا في أحسن حال ، ومن الناحية المعنوية ، حالتي ممتازة ، فمنذ زمن لم أشعر بمثل هذه القوة ، فيواجهها هو عندئذ دون تروٍ

اعلمي إذن أن ابنتك بالعماد قد ماتت ، ولنر كيف ستتلقى الخبر . ولكن المرأة لم ترد على سؤاله ، واكتفت برفع كتفيها دون مبالاة ، وقالت ، لقد كنتُ أفكر منذ أيام في الاتصال بك هاتفياً على رقم المحفوظات العامة، ولكنني تخليت عن الفكرة ، مقدرة أنك ستأتي لزيارتي عاجلاً أو آجلاً، لحسن الحظ أنك لم تتصلي ، فالمدير يستاء من تلقينا مكالمات هاتفية ، يقول إن ذلك يضر بالعمل ، أفهم ذلك ، إنما كان يمكن حل هذا الأمر بسهولة ، إذ يكفي أن أخبره هو نفسه بالمعلومة التي لدي ، دون حاجة لأن يخبرك بها . غطى عَرَقٌ بارد مفاجئ جبهة دون جوزيه .فقد انتبه لتوه إلى أنه كان ، طوال عدة أسابيع ، وهو جاهل بالخطر ، وغير مدرك للتهديد ، على شفا الكارثة المطلقة المتمثلة في الكشف العلني عن عدم قانونية سلوكه المهني ، وعن انتهاكه المتواصل والإرادي لقوانين الحقوق والواجبات الموقرة في المحفوظات العامة للسجل المدني ، التي يسود فصولها ، وبنودها ، وفقراتها ، ونقاطها ، تعقيد شديد ، خصوصاً بسبب لغتها المغرقة في القدم ، إلا أن خبرة القرون الطويلة أوجزتها في سبع كلمات عملية ، لا تتدخل في ما لا يطلب منك . أحس دون جوزيه لبرهة بكراهية ساخطة نحو المرأة التي تجلس قبالته ،فشتمها في ذهنه ، ونعتها بالعجوز الشمطاء ، القميئة، البلهاء ، وكمن لم يجد طريقة أفضل للانتقام من رعب عنيف ومفاجئ ، كان على وشك أن يقول لها ، آه ، هكذا ، تحملي إذن هذا الخبر ، فابنتك بالعماد ، صاحبة الصورة ، قد ماتت . ولكن المرأة سألته ، هل تشعر بالتوعك يا دون جوزيه ، أتريد كأساً من الماء ، إنني بخير ، لا تقلقي ، ردّ عليها بذلك وهو يشعر بالخجل من اندفاعه الشرير ،،سأعد لكَ شاياً ، أشكركِ جزيل الشكر ، لا حاجة إلى ذلك ، لا أريد إزعاجك ، وأحس دون جوزيه في هذه اللحظة بأنه أشد خسة ومذلة من غبار الشارع ، كانت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي قد خرجت من الصالة ، وراح يسمع ضجة أواني الخزف في المطبخ ، مرت بضع دقائق ، أول ما يجب عمله هو غلي الماء ، ودون

جوزيه يتذكر بأنه قرأ في مكان ما ، ربما في إحدى المجلات التي يقص منها صور الأشخاص المشهورين ، بأنه يتوجب صنع الشاي من ماء مغلي مسبقاً وليس من ماء يغلي ، صحيح أنه كان سيتمتع بكأس ماء بارد ، ولكن الشاي سيكون أفضل بكثير ،فالجميع يعرفون أنه من أجل رفع المعنويات المنهارة ، ليس هناك ما يمكن مقارنته بفنجان من الشاي ، هذا ما تقوله كل المراجع ، الشرقية منها والغربية . ظهرت صاحبة البيت وهي تحمل صينية ، فيها طبق من المعجنات ، إضافة إلى إبريق الشاي والفنجانين والسكرية ، قالت ، لم أسألكَ إن كنتَ تحب الشاي ، لقد فكرتُ فقط في أنه سيكون أفضل من القهوة في هذه اللحظات ، أحبُ الشاي ، أجل يا سيدتي ، أحبه كثيراً ، هل تريد سكراً ، لا أتناوله مطلقاً ،وفجأة اعتراه الشحوب ، وراح يتعرق ، وظن بأن عليه أن يبرر ذلك ، لابد أنها آثار إصابة بالأنفلونزا ألمت بي ، لو أنني تلفنتُ إذن ، لما وجدتكَ في المحفوظات العامة ، أي أنه كان علي أن أخبر رئيسك بما جرى معي . وفي هذه المرة لم يكد العرق يبلل راحتي يدي دون جوزيه ، ومع ذلك فإن حسن الحظ وحده شاء أن يكون فنجان الشاي على المنضدة ، لأنه لو كان في يده في تلك اللحظة ، لهوى فنجان الخزف على الأرض ، أو لانسكب الشاي ، وسلق ساقي الكاتب التعس ، مع ما سيتبع ذلك من نتائج بينة ، أولها الحرق ، ثم العودة بعد ذلك بالبنطال إلى المصبغة . تناول دون جوزيه قطعة معجنات من الطبق ، قضمها بأناة ، دون تلذذ ، مدارياً بحركة المضغ الصعوبة التي تجدها الكلمات في الخروج من فمه ، إلى أن تمكن من صياغة السؤال الذي يشغله ، وما هي تلك المعلومة التي كنتِ تودين إطلاعي عليها .شربت المرأة قليلاً من الشاي ، ومدّت يدها المترددة نحو طبق المعجنات ، ولكنها لم تكمل الحركة . قالت ، هل تتذكر أنني نصحتك في نهاية زيارتك ، عندما كنتَ على وشك الانصراف ، بأن تبحث في دليل الهاتف عن اسم ابنتي في العماد ، أتذكر ذلك ، ولكنني فضلتُ ألا أعمل بنصيحتك ، ولماذا ، هذا أمر يصعب تفسيره ،

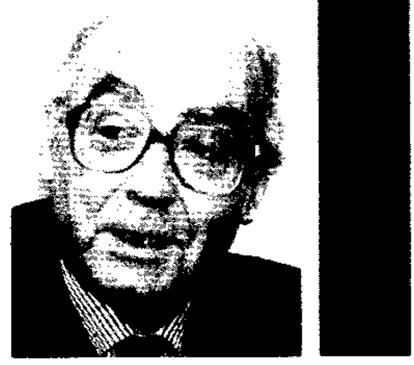
ولكن لا بد أن تكون لديك أسباب لذلك ، تقديم أسبابٍ لما يفعله أحدنا أو لما يمتنع عن فعله هو من أسهل الأمور ، وعندما نلاحظ أننا لا نملك الأسباب ، أو أننا نملك القليل منها ، فإننا نحاول اختلاقها ، وفي قضية ابنتكِ بالعمد ، على سبيل المثال ، يمكنني أن أعلن الآن بأنني ارتأيت أنه من الأفضل سلوك أطول السبل وأكثرها تعقيداً ، وأنا أتساءل ، هل هذا المبرر هو من المبررات الحقيقية أم المختلقة ، فلنتفق على أنه يتضمن من الحقيقة قدر ما يتضمنه من الكذب ، وما الجانب الكاذب فيه ، كوني أتصرف هنا كما لو أن السبب الذي قدمته لكِ سيؤخذ كحقيقة مطلقة ، أوليس هو كذلك ، لا ، لأنني أغفل السبب الذي فضلتُ من أجله ذلك السبيل وليس أي سبيل مباشر سواه ، هل لأنكَ تشعر بالضجر من روتين عملك ، يمكن لهذا أن يكون سبباً آخر ، وإلى أي نقطة وصلت تحرياتك ، حدثيني أولاً عما جرى ، ولنضع في الحسبان أنني كنتُ موجوداً في المحفوظات العامة عندما فكرتِ في الاتصال بي ، وأن الرئيس لا يكترث بتلقي موظفيه اتصالات هاتفية . رفعت المرأة الفنجان مرة أخرى إلى شفتيها ، ثم وضعته في الصحن دون أن تحدث أدنى صوت ، وقالت في الوقت نفسه الذي كانت يداها تعودان فيه إلى حجرها ، اليمنى منهما فوق اليسرى ، لقد فعلتُ ما طلبتُ منكَ أن تفعله ، هل اتصلتِ بها ، أجل ، وتكلمتِ معها ، أجل ، ومتى حدث ذلك ، بعد أيام من مجيئك ، لم أستطع مقاومة الذكريات ، بل إنني لم أعد أستطيع النوم ، وماذا حدث ، تبادلنا الحديث ، لا بد أنها فوجئت ، لم تُبدِ لي ذلك ، ولكنه الأمر الطبيعي بعد كل تلك السنين من البعاد والصمت ، من الواضح أن معرفتك بالنساء قليلة ، لا سيما إذا كنّ تعيسات ، وهل كانت تعيسة ، لقد انخرطنا كلتانا في البكاء بعد قليل ، كما لو أن كلاً منا مربوطة إلى الأخرى بخيط من الدموع ، وهل أخبرتكِ بشيء عن حياتها ، من تعني ، هي لكِ ، لا شيء تقريباً ، سوى أنها تزوجت ، وأنها الآن مطلقة ، هذا أمر نعرفه ، فهو مثبت في البطاقة ، وقد اتفقنا على أن تأتي لزيارتي عندما يتاح لها

ذلك ، وهل جاءت ، حتى اليوم ،لا ، ماذا تعنين ، أعني ببساطة أنها لم تأتِ، ولم تتصل بالهاتف ، لم تتصل ، وكم يوماً مضى على ذلك ، منذ أسبوعين تقريباً ،أكثر أم أقل من أسبوعين ، أقل على ما أعتقد ، أجل ، أقل ، وماذا فعلتِ حضرتك ، ظننتُ في البدء أنها غيّرت رأيها ، وأنها لا تريد في نهاية المطاف تجديد العلاقات القديمة ، ولا تريد علاقة حميمة بيننا ، وأن تلك الدموع ليست إلا لحظة ضعف لا أكثر ، وهو ما يحدث في أحيان كثيرة ، فهناك لحظات في الحياة نطلق فيها العنان لأنفسنا ، ولا نتورع عن مكاشفة أول مجهول نصادفه بآلامنا ، ألا تتذكر ، عندما جئتَ إلى هنا ، إنني أتذكر ، ولن أشكرك مطلقاً على ثقتك تلك بي ، لا تظن أنني فعلت ذلك بدافع الثقة ، بل بدافع اليأس وحسب ، أياً كان الدافع ، فإنني أعدُكِ بأنكِ لن تندمي ، يمكنك أن تطمئني ،فأنا شخص متكتم ، أجل ، لدي اليقين بأنني لن أندم ، شكراً ، ولكن ذلك في الحقيقة ، لأني لم أعد أبالي بشيء ، ولهذا أنا موقنة من أنني لن أندم ، آه . إن الانتقال من نداء متفجع كهذا إلى استجواب مباشر من نوع ، وماذا فعلتِ بعد ذلك ، ليس بالأمر السهل ، ولهذا احتفظ دون جوزيه بالصمت ، منتظراً ما سيأتي . وكما لو أن المرأة عرفت ذلك أيضاً ،فسألته ، أتريد مزيداً من الشاي ، ووافق وهو يُقرّب الفنجان ، أرجوكِ . ثم قالت المرأة بعد ذلك ، قبل أيام اتصلتُ ببيتها ، وماذا جرى ، لم يردّ أحد على المكالمة ، وردت عليّ آلة التسجيل ، وهل اتصلتِ مرة واحدة فقط ، أجل ، في اليوم الأول مرة واحدة ، ولكنني فعلت ذلك عدة مرات في الأيام التالية ، وفي مواعيد مختلفة ، تلفنت لها في الصباح ، وتلفنت في المساء ، وتلفنت بعد موعد العشاء ، وبلغ بي الأمر حد الاتصال في منتصف الليل ، دون جدوى ، دون جدوى ، ففكرتُ بأنها ربما تكون خارج البيت ، وهل أخبرتكِ بمكان عملها ، لا . عند هذا الحد لم يعد بإمكان المحادثة أن تتواصل حول البئر السوداء التي تخفي الحقيقة ، وبدأت تقترب اللحظة التي يقول فيها دون جوزيه ، لقد ماتت ابنتك في العماد ، بل كان عليه أن يقول

ذلك منذ دخوله ، ولهذا ستتهمه المرأة بالتأخر كثيراً ، لماذا لم تخبرني بذلك فوراً ، ولماذا وجهتَ كل هذه الأسئلة ما دمتَ تعرف أنها ميتة ، ولن يستطيع عندئذ الكذب متعللاً بأنه صمتَ لكي لا يصدمها ، دون تهيئة مسبقة، ودون احترام ، بوقع الخبر المحزن ، والحقيقة أن السبب الوحيد لكل هذا الحوار البطيء والطويل هو الكلمات التي قالتها هي عند المدخل ، وأنا أيضاً لدي ما أقوله لك ، وفي تلك اللحظة افتقر دون جوزيه إلى الهدوء المستكين الذي يجعله يرفض إغواء حب الإطلاع على هذا الأمر الصغير عديم الجدوى مهما كان ، لقد افتقر إلى الاستكانة الهادئة ليقول لها ، لم يعد هناك ما يستحق العناء ، فقد ماتت . كان ذلك كما لو أنه يمكن لما ستخبره به سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، أن يعيد الزمن إلى الوراء ، دون أن يدري كيف ، ليتمكن في اللحظة الأخيرة من اختطاف المرأة المجهولة من الموت . كان دون جوزيه متعباً ، ولم تعد لديه الآن من رغبة سوى أن يؤخر لبضع ثوان ما لا مفر منه ، فسألها ، ألم يخطر لكِ الذهاب إلى بيتها ، وسؤال الجيران إذا ما كانوا قد رأوها ، لقد فكرتُ في ذلك بالطبع ، ولكنني لم أفعله ، لماذا ، لأن ذلك سيجعلني أبدو دخيلة ، وقد لا يروق لها ذلك ، ولكنك اتصلتِ بها هاتفياً ، الأمر مختلف . ساد صمت ، وبعد ذلك بدأت ملامح وجه المرأة تتبدل ، وبدت عليه إمارات الاستفهام ، فأدرك دون جوزيه أنها ستسأل ، أخيراً ، عن المسائل المتعلقة بالقضية التي قادته اليوم إلى بيتها ، وإذا ما كان قد تمكن من اللقاء بها ومتى ، وإذا ما كانت مشكلة المحفوظات العامة قد حُلّت وكيف ، سيدتي العزيزة ، يؤسفني أن أُعلمك بأن ابنتك بالعماد قد ماتت ، قال دون جوزيه ذلك بسرعة . فتحت المرأة عينيها على اتساعهما ، رفعت يديها عن حضنها ونقلتهما إلى فمها ، ماذا ، ابنتكِ في العماد ، أقول إن ابنتك في العماد قد توفيت ، وكيف عرفت ذلك ، سألته المرأة دون تفكير ، فقال دون جوزيه ، من أجل هذا وُجدت المحفوظات ، ثم هز كتفيه على الفور وكأنه يقول ، ليس الذنب ذنبي ، ومتى

ماتت ، لقد أحضرتُ البطاقة معي ، إذا أردتِ رؤيتها .مدّت المرأة يدها ، قرّبت قطعة الكرتون من عينيها ، ثم أبعدتها وهي تتلعثم ، نظارتي ، ولكنها لم تبحث عنها ،فقد كانت تعرف أنها لن تفيدها في شيء ، وحتى لو أرادت أن تقرأ فلن تستطيع قراءة ما هو مكتوب هناك ، فقد كانت الدموع تحوّل الكلمات إلى لطخات .قال لها دون جوزيه ، إنني متأسف جداً. غادرت المرأة الصالة ،تأخرت بضع لحظات ، وعندما رجعت كانت تمسح عينيها بمنديل . جلست ، سكبت لنفسها شاياً من جديد ، ثم سألت بعد ذلك ، هل جئتَ لتخبرني بموت ابنتي بالعماد فقط ، أجل ، هذا لطف كبير من جانبك ،لقد فكرتُ ،ببساطة ، بأن الواجب يفرض علي ذلك ، لماذا ، لأنني شعرتُ بأني مدين لك ، بأي شيء ، بالطريقة اللطيفة التي قابلتني وعاملتني بها ، ومساعدتك لي ، وإجابتك على استفساراتي ، والآن بعد أن بلغ العمل الذي كلفوكَ به نهايته بقوة الأشياء ،لم يعد عليك أن تُتعب نفسك بالبحث عن ابنتي في العماد المسكينة ، عملياً ، أجل ، ربما يكونون قد كلفوك في المحفوظات العامة بالبدء في البحث عن شخص آخر ، لا ، لا ، فمثل هذه الحالات نادرة جداً ،هذا هو الجيد في الموت ، فمعه ينتهي كل شيء ، ليس الأمر على هذا النحو دائماً ،فسرعان ما تبدأ الحروب بين الورثة ، وضراوات التقاسم ، وضريبة الميراث التي لا بد من دفعها ، كنتُ أشير إلى ما يخص الشخص الميت نفسه ، في هذا الشأن ، أجل ، معك حق ، كل شيء ينتهي ، إنه لأمر مثير للفضول ، أنتَ لم تخبرني قط عن السبب الذي دفع المحفوظات العامة للبحث عن ابنتي في العماد ، أسباب مثل هذا الاهتمام الكبير بها ،مثلما قلتِ حضرتك للتو ،لقد حلّ الموت كل المشاكل ، كانت هناك مشكلة إذن ، أجل ، وما هي ، لم يعد الأمر يستحق الحديث فيه ، لقد فقد الموضوع أهميته ، أي موضوع . فقاطعها دون جوزيه يائساً ،أرجو منك عدم الإلحاح . وضعت المرأة الفنجان في الصحن بجفاء وقالت وهي تنظر مواجهة إلى الزائر ، لقد كنا هنا ، أنا وأنت ، في ذلك اليوم

وفي هذا اليوم ، وكان أحدنا يقول الحقيقة منذ البداية وطوال الوقت ، بينما كان الآخر يكذب منذ البداية وطوال الوقت ، أنا لم أكذب ، ولستُ أكذب الآن ، اعترف إذن بأنني كنتُ أكلمك طوال الوقت بصدق ، بصراحة، وبانفتاح ، وبأنه لم يخطر لكَ قط أن هناك كذبة واحدة في كلماتي ، أعترفُ بذلك ، أعترفُ بذلك ، إذا كان هناك كاذب في هذه الغرفة إذن ، وأنا متأكدة من وجوده ، فلن أكون أنا ، لستُ كاذباً ،أعتقد أنكَ لستَ كذلك بطبيعتك ، ولكنكَ كنتَ تكذب مذ جئتَ هنا أول مرة ومنذ ذلك الحين واصلتَ الكذب ، لا يمكن لحضرتك أن تفهمي الأمر ، ولكنني أفهم بما يكفي لكي لا أصدق بأن المحفوظات قد أرسلتك يوماً للبحث عن ابنتي في العماد ، إنك مخطئة ، أؤكد لكِ بأنها أرسلتني ، إذا لم يكن لديكَ ما تقوله لي ، وإذا كانت هذه هي كلمتكَ الأخيرة ، فاخرج إذن من بيتي الآن فوراً، كفى ، هيا ، وقد نطقت المرأة الكلمتين الأخيرتين بما يشبه الصراخ ، ثم بدأت بعد ذلك بالبكاء . نهض دون جوزيه ، مشى خطوة باتجاه الباب ،ثم عاد للجلوس وقال ، اعذريني ، لا تبكي ، سأُخبركِ بكل شيء .



عندما انتهيتُ من الكلام ، سألتني ، وماذا تفكر أن تفعلَ الآن ، فقلتُ، لا شيء ، هل تفكر في العودة إلى مجموعاتك من الشخصيات المشهورة ، لستُ أدري ، ربما ، فلا بد لي من أن أشغل وقتي بشيء ما ،وصمتُ قليلاً وأنا أفكر ثم أجبتُ ،لا ،لا أظن ذلك ، لماذا ، إذا ما أمعنا النظر ، فإن حياة هؤلاء الناس تمضي على وتيرة واحدة دائماً ،لا تتبدل أبداً ،يظهرون ، يتكلمون ، يستعرضون أنفسهم ، يبتسمون للمصورين ، وهم قادمون أو مسافرون على الدوام ، مثل أي واحد منا ، أنا لستُ كذلك ، بل أنتَ وأنا والجميع ، كلنا نستعرض أنفسنا ، وكلنا نتكلم أيضاً ،ونخرج من البيت ونعود إليه أيضاً ، بل إننا نبتسم أحياناً ، والفرق هو أنه ليس هناك من يهتم بنا ، لا يمكن لنا أن نكون جميعنا مشهورين ، هذا سيُسعدك ،تصور أن تكون مجموعتك بحجم المحفوظات العامة ، بل ستكون في هذه الحالة أكبر منها بكثير ،فالمحفوظات لا يهمها أن تعرف إلا متى نولد ، متى نموت ، وبعض الأشياء القليلة الأخرى ، إذا ما تزوجنا ، تطلقنا ، ترملنا ، وإذا ما تزوجنا ثانية ،ولا يهم المحفوظات في شيء إذا ما كنا في أثناء ذلك كله سعداء أو تعساء ،السعادة والتعاسة مثل الأشخاص المشهورين ، تأتي وتذهب ، وأسوأ ما في المحفوظات هو أنها لا تريد أن تعرف من نكون ، فنحن لسنا في نظرها سوى قطعة ورق عليها بعض الأسماء وبعض

التواريخ ، مثل بطاقة ابنتي في العماد ، ومثل بطاقتك وبطاقتي ، ماذا كنتَ فاعلاً لو أنك التقيت بها ، لا أدري ، ربما كنتُ كلمتها ، وربما لا ، لم أفكر في ذلك قط ، وهل فكرتَ في أنك منذ تلك اللحظة التي ستجدها فيها أمامك ، لن تعرف عنها أكثر مما كنت تعرفه ، أي لا شيء ، وأنكَ إذا ما أردت أن تعرف من هي فعلاً سيكون عليك أن تبدأ البحث عنها من جديد ، ويمكن للأمر أن يكون أصعب بكثير إذا ما كانت ، على عكس الأشخاص المشهورين الذين يحبون الظهور ، لا ترغب في أن يُعثر عليها ، هذا صحيح ، ولكن يمكنكَ ، وقد ماتت الآن ، أن تواصل البحث عنها ، لأن ذلك لم يعد يهمها ، لستُ أفهمك ، أنتَ لم تتوصل حتى الآن ، بالرغم من كل الجهود التي بذلتها ، إلا لمعرفة أنها كانت ترتاد مدرسة ، وهي بالمناسبة المدرسة نفسها التي وجهتُكَ إليها ، ولدي صور ، الصور هي أوراق أيضاً ، يمكننا أن نتقاسمها ، ونظن أننا نقتسمها هي نفسها ، جزء لك ، وجزء لي ، لا يمكن عمل ما هو أكثر من ذلك ، كان هذا ما قلتُهُ لها في تلك اللحظة ، معتقداً أنني أغلق القضية ، ولكنها سألتني ، لماذا لا تتكلم مع والديها ، مع زوجها السابق ، وما الفائدة ، لمعرفة شيء آخر ما عنها ، كيف كانت تعيش ، ماذا كانت تعمل ، الزوج لن يرغب في مثل هذه المحادثة ، فالمياه التي جرت ومضت لا تدير الطواحين ، ولكن الأبوين سيرغبان ، فالآباء لا يرفضون مطلقاً الحديث عن أبنائهم ، حتى عندما يكون الأبناء ميتين ، هذا ما لاحظته ، مادمتُ لم أذهب من قبل ، فلن أذهب الآن ، وقد كان بإمكاني من قبل أن أدعي بأنني مبعوث من المحفوظات العامة ، ما هو سبب موت ابنتي في العماد ، لستُ أدري ، وكيف ذلك ، يجب أن يكون سبب الوفاة مسجلاً في المحفوظات ، نحن لا نثبت في البطاقات سوى الوقوعات ، وليس أسبابها ، ولكن لا بد أن يكون هناك إشعار بالوفاة ، فالأطباء مجبرون قانونياً على تأكيد الوفاة ، ولا يقتصرون على القول إنها ميتة عندما تكون قد ماتت ، لم تكن هناك بين الأوراق التي وجدتها في أرشيف

الموتى إشارة إلى شهادة الوفاة ، ولماذا ذلك ، لستُ أدري ، لا بد أنها سقطت في الطريق عندما حفظوا الملف ، أو أنها سقطت مني ، إنها مفقودة ، والبحث عنها سيكون أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من القش ، وأنتِ لا يمكنكِ أن تتصوري ما يعنيه ذلك ، يمكنني تصوره من خلال ما رويتَه لي ، لا يمكنكِ تصوره ، مستحيل ، إلا إذا كنتِ هناك ، مادام الأمر كذلك ، فإن لديكَ سبباً وجيهاً للتحدث مع الأبوين ، قل لهما إن شهادة الوفاة قد ضاعت ، للأسف ، في المحفوظات ، وإنكَ تريد استكمال الملف وإلا فإن الرئيس سيعاقبك ، أظهر التذلل والقلق ، واسأل عمن كان الطبيب الذي عالجها ، وأين ماتت ، وبأي داء ، وإذا ما حدث ذلك في البيت أم في المستشفى ، اسأل عن كل شيء ، وأظن أن التكليف ما زال بحوزتك ، أجل ، ولكن لا تنسي أنه مزيف ، لقد انطلت الحيلة عليّ ، وستنطلي عليهم أيضاً ، ما دام لا وجود لحياة دون أكاذيب ، فلا بأس كذلك في وجود خدعة في هذه الميتة ، لو أنكِ كنتِ موظفة في المحفوظات العامة ، لعرفتِ أنه ليس بالإمكان خداع الموت . ولا بد أنها خلصت إلى الاعتقاد بأنه ليس هناك ما يُرجى من الردّ عليّ ، وقد كانت على حق تماماً في ذلك ، لأن ما قلته لم يكن أكثر من عبارة مبهرجة ، جوفاء ، من تلك التي تبدو عميقة دون أن تتضمن في أعماقها شيئاً . بقينا صامتين نحو دقيقتين ، وكانت تنظر إليّ بوجه مؤنِّب ، كما لو أنني قدمت لها وعداً رسمياً ثم خذلتها في اللحظة الأخيرة . لم أعد أدري أين أتوارى ، وكانت إرادتي تدفعني إلى أن أتمنى لها ليلة سعيدة وأنصرف من هناك ، ولكن ذلك سيبدو فظاظة حمقاء ، وعدم لياقة لا تستحقها السيدة المسكينة ، وهي تصرفات لا تشكل في الواقع جزءاً من شخصيتي ، لقد تربيتُ هكذا ، صحيح أنني لا أتذكر أنني تناولت الشاي يوماً في صغري ، ولكن النتيجة انتهت إلى أن تكون نفسها . حين كنتُ أفكر في أنه من الأفضل تقبل الفكرة ، وبدء البحث مجدداً في اتجاه معاكس لبحثي الأول ، أي انطلاقاً من الموت باتجاه الحياة ، قالت هي ، لا

تكترث بما قلتُه ، إنها ترهات تخرج من رأسي ، فعندما نبلغ سن الشيخوخة ونتنبه إلى أن الزمن آخذ بالنفاد ، نبدأ بالتصور بأننا نملك في يدنا العلاج لكل شرور العالم ، ويصيبنا القنوط لأن الآخرين لا يولوننا اهتمامهم ، لم تراودني هذه الفكرة قط ، سيأتي دورك ،فأنتَ ما تزال شاباً ، أنا شاب ، إنني في الثانية والخمسين ، إنكَ في زهرة العمر ، لا تلعبي بي ، ابتداء من سن السبعين فقط تصير حكيماً ، ولكن ذلك لن يفيدك ، أنت أو سواك ، في شيء عند ذلك . ولأنه ما زال أمامي وقت طويل لبلوغ تلك السن ، فإنني لم أعرف إذا ما كان عليَّ أن أوافقها الرأي أم لا ، ولهذا رأيت أنه من الأفضل لي أن أصمت . لقد صار بإمكاني الآن وداعها ، فقلت ، لن أسبب لكِ مزيداً من الإزعاج ، أشكرك على صبرك ولطفك ، وألتمس منك المعذرة ، فالسبب في هذا كله هو تلك الحماقة التي خطرت لي ، إنها عبثية لا يُعرف لها مثيل ، فأنتِ كنت تعيشين بهدوء في بيتك ، وجئتُكِ إلى هنا بالتحايل ، بقصص ملفقة ، إنني أحمر خجلاً وأنا أتذكر بعض الأسئلة التي وجهتها إليك ، على عكس ما تقوله ، أنا لم أكن أعيش بهدوء ، كنتُ وحيدة ، وإطلاعك على بعض الأشياء الحزينة من حياتي كان أشبه بإزاحة ثقل عن كاهلي ، لحسن الحظ أنك تفكرين على هذا النحو ، هكذا أفكر ، ولا أريدكَ أن تغادر قبل أن أتقدم إليك بطلب ، قولي ما تشائين ،سأفعل كل ما أستطيعه لإرضائك ، ليس هناك من هو قادر على فعل ذلك خيراً منكَ ،وما سأطلبه بسيط ، أن تزورني بين حين وآخر ، عندما تتذكر ذلك وترغب فيه ، وإن لم يكن للحديث عن ابنتي في العماد ،سآتي لزيارتك بكل سرور ، وسيكون في انتظاركَ فنجان من القهوة أو الشاي على الدوام ، هذا سبب جيد للمجيء ، ولكن الأسباب الأخرى ليست قليلة ، شكراً جزيلاً ، وأعود لأكرر القول بألا تهتم بفكرتي تلك ، فهي في نهاية المطاف حمقاء مثلما كانت فكرتكَ، سوف أفكر في الأمر . قبّلتُ يدها كما في المرة الأولى ، ولكن حدث عندئذ شيء لم أكن أتوقعه ، فقد بقيت ممسكة بيدي ورفعتها إلى شفتيها . لم تفعل

امرأة معي مثل هذا من قبل قط ، وقد أحسست بالأمر كصدمة في الروح ، اختلاجة في القلب ، وما زلت حتى الآن ، في الفجر ، بعد مرور عدة ساعات ، وبينما أنا أكتب أحداث اليوم في الدفتر ، أنظر إلى يدي اليمنى وأجدها مختلفة ، وإن كنتُ عاجزاً عن تحديد جوهر الاختلاف ، لا بد أنه شيء داخلي ، وليس خارجياً . توقف دون جوزيه عن الكتابة ، ترك قلم الرصاص ، وخبأ في الدفتر ، بحرص ، بطاقات المرأة المجهولة المدرسية التي تبين له أخيراً أنها بقيت على الطاولة ، ثم دسها بين الفراش وسطح السرير ، عميقاً . بعد ذلك سخّن الطبيخ المتبقي من الغداء وجلس لتناول العشاء . كان الصمت شبه مطبق ، تكاد لا تُلحظ ضجة السيارات القليلة التي ما زالت تجوب المدينة . وما كان يُسمع بصورة أفضل هو صوت مخنوق ، يعلو وينخفض مثل كيرٍ ناءٍ ، ولكن دون جوزيه كان معتاداً على هذا الصوت ، إنه تنفس المحفوظات . اندس دون جوزيه في السرير ، ولكنه لم يكن يشعر بالنعاس . كان يتذكر أحداث اليوم ، المفاجأة المثيرة في رؤية الرئيس يدخل إلى المحفوظات في ساعة غير مألوفة ، المحادثة الهائجة مع سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، والتي ترك دليلاً عنها في دفتر الملاحظات ، دليلاً أميناً في المعنى ، وإن لم يكن كذلك في الشكل ، وهو ما يمكن فهمه وغفرانه لأن الذاكرة ، وهي شديدة الحساسة ولا يروق لها أن تُضبط في خطأ ، تميل إلى ملء فجوات النسيان باختلاقات من واقع خاص ، مفتعلة بجلاء ، ولكنها متاخمة إلى هذا الحد أو ذاك للأحداث التي لم يبق منها إلا ذكرى غامضة ، مثل ما يتبقى من أثر مرور ظل . كان يبدو لدون جوزيه أنه لم يصل بعد إلى نتيجة منطقية لما يحدث ، وأنه ما زال عليه أن يتخذ قراراً وإلا فإن الكلمات الأخيرة التي قالها لسيدة الطابق فوق الأرضي ، سوف أفكر في الأمر ، لن تكون سوى وعد باطل ، من تلك الوعود التي تظهر دائماً خلال الأحاديث دون أن يتوقع أحد إنجازها . كان دون جوزيه يتلهف للدخول في إغفاءة عندما برز له فجأة ، ومن يدري من

أي عـمق ، الحلّ المنشـود ، مـثل طرف خـيط آريان جـديد ، يوم السـبت سأذهب إلى المقبرة ، قال ذلك بصوت عالٍ .دفعه الانفعال إلى الجلوس بغتة في السرير ، ولكن صوت الحس السليم الهادئ هرع لنصحه ، بما أنك قررت ما الذي ستـفعله ، فتـمدد ونم ، لا تـكن طفـلاً ، ولا أظنكَ تريد ، فـي هذه الساعة من الليل ، أن تذهب إلى المقبرة وتتسلق الجدار ، وهذا مجرد كلام بالطبع . انزلقَ دون جوزيه ، منصـاعاً ،ما بين الملاءات ، وغطى نفسـه حتى أنفه ، ولكنه بـقي دقيقة أخرى مفتوح العينين وهو يفكر ، لن أستطيع النوم . ولكنه في الدقيقة الثانية كان قد نام .

استيقظ متأخراً ، في موعد فتح أبواب المحفوظات تقريباً ، فلم يُتح له الوقت لحلاقة ذقنه ، ولبس بتعثر متعجل وخرج من البيت في جري أرعن ، غير لائق بسنه ومكانته . كان جميع الموظفين ، ابتداء من الكتبة الثمانية وحتى نائبي المدير ، جالسين في أماكنهم ، وعيونهم مثبتة على ساعة الجدار ، بانتظار أن ينطبق عقرب الدقائق على الرقم اثني عشر . توجه دون جوزيه إلى مأمور قسمه الذي عليه أن يقدم إليه أعذاره الأولية ، وطلب منه العذر عن تأخره ، لقد نمتُ نوماً سيئاً ،قـال مبـرراً سلوكه وهو يعلم ، من خلال تجـربة سنوات طويلة ، بأن تفـسـيراً مـثل هذا لن ينفعـه في شيء ، وكـان الجـواب الجاف الذي سـمعـه ، اجلس . وبـعد ذلك بالضبط ، عندما حوّلت الانزلاقة الأخيرة لعقرب الثواني زمن الانتظار إلى زمن العمل ، لم يكن دون جـوزيه ، المذهول من رباطي حذائه اللذيـن نسي عـقـدهمـا ،قـد وصل إلى منضدته بعد ، وهو أمر لحظه المأمور بفتور وسجل الواقعة غير المألوفة في مـفكرة اليـوم .مـضى أكـثـر من سـاعـة قـبـل أن يصل المدير . دخل بملامح مُرَّكزة ، ومتـجهـمـة تقـريبـاً ،مما أدخل الريبـة في مـزاج الموظفين ، إذ يمكن للوهلة الأولى أن يقال بأنه هو أيضاً نام نوماً سيئاً ، ولكنه كان في الحقيقة متأنقاً كعادته ، ذقنه حليقة بعناية ، وليس في بدلته تجعيدة واحدة ، وليس في رأسـه شعرة واحدة في غيـر مكانها . توقف هنيهة بجانب منضدة دون

جوزيه ونظر إليه بصرامة ، دون أن ينطق بكلمة واحدة . فبدأ دون جوزيه المثقل حركة تبدو غريزية عند الرجال ، هي حركة رفع اليد إلى الوجه وفرك الذقن ليرى إذا ما كانت نامية ، ولكن الحركة توقفت في منتصف الطريق ، وكأنه يستطيع بهذه الطريقة أن يواري ما هو جلي للجميع ، إهمال مظهره غير المغتفر . وفكر الجميع ، التوبيخ يوشك أن ينهال عليه . توجه المدير إلى منضدته ، جلس واستدعى نائبي المدير . وكانت الفكرة العامة التي سادت هي أن أمور دون جوزيه ستسوء ، وإلا لما استدعى الرئيس مرؤوسيه المباشرين ، فهو يريد سماع آرائهما حول العقوبة القاسية التي يعتزم فرضها ، وفكر الكتبة بسعادة ، لقد نفد صبره ، وكانوا قد استهجنوا في الآونة الأخيرة المعاملة التفضيلية غير المستحقة التي تلقاها دون جوزيه من الرئيس ، وقرروا في دخيلتهم ، آن لذلك أن ينتهي . ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الأمر لم يكن كذلك . فبينما راح أحد نائبي المدير يأمر الجميع ، مأمورين وكتبة ، بأن يلتفتوا نحو المدير ، كان الآخر يدور حول منضدة الكونتوار ويغلق بوابة الدخول ، بعد أن علّق على جانبها الخارجي لوحة تقول مغلق مؤقتاً لضرورات العمل . ماذا هناك ، وما الذي سيحدث ، هكذا تساءل الموظفون ، بمن فيهم نائبا المدير ، لأنهما لا يعرفان أكثر مما يعرفه الآخرون ، أو ربما يعرفون أكثر بقليل ، لأن الرئيس أخبرهما بأنه سيتكلم . وكانت الكلمة الأولى التي قالها اجلسوا . فانتقل الأمر من نائبي المدير إلى المأمورين ، ومن المأمورين إلى الكتبة ، وحدثت الضجة المحتومة نتيجة تبديل اتجاه الكراسي ، ليصبح ظهر كل واحد منهم إلى منضدته ، ولكن هذا كله جرى بسرعة ، وفي أقل من دقيقة كان الصمت مطبقاً في المحفوظات العامة . لم يكن يُسمع طنين ذبابة ، بالرغم من أن الذباب موجود ، بعضه رابض بسكون في أماكن آمنة ، وبعضه الآخر يحتضر في شِباك العناكب القذرة في السقف . نهض المدير بتمهل ، وبالتمهل نفسه جاب بعينيه الموظفين ، واحداً واحداً ، وكأنه يراهم للمرة الأولى ، أو كما لو أنه يتعرف

عليهم بعد غياب طويل ، والغريب أن ملامحه لم تعد متجهمة ، أو أنها كانت كذلك بمفهوم آخر ، وكأن ألماً أخلاقياً يؤرقه . ثم تكلم بعد ذلك ، أيها السادة ، بصفتي رئيس هذه المحفوظات العامة للسجل المدني ، الوريث الأخير لسلالة من المديرين الذين بدأت نشاطاتهم تاريخياً بإيداع أقدم الوثائق المحفوظة في ارشيفنا ، وباستخدامي القانوني للصلاحيات الممنوحة لي ، ومقتدياً بأسلافي الذين سبقوني ، نفذتُ وأشرفت بأعلى قدر من الدقة ،على تنفيذ القوانين المدونة التي تنظم سير العمل ، دون تجاهل التقاليد ، بل وضعها نصب عيني في كل وقت . إنني أعي تبدل الأزمنة ، والحاجة إلى التحديث المستمر في وسائل وأساليب الحياة الاجتماعية، ولكنني أدركُ ،مثلما أدركَ جيداً من مارسوا قبلي إرادة هذه المحفوظات ، بأن الحفاظ على الروح ، الروح التي سأُطلق عليها روح الاستمرارية والهوية العضوية ، يجب أن تسمو على أي اعتبار ممكن آخر ، وإلا فإننا سنشهد ، ما لم نوجه أنفسنا ، انهيار البنيان الأخلاقي ، الذي نواصل تمثيله هنا ، كمؤتمنين سابقين ولاحقين على الحياة والموت . ولن نعدم من يحتج لأنه لا توجد في هذه المحفوظات العامة ولو آلة كاتبة واحدة ، وهذا دون ذكر الأجهزة الأكثر حداثة ، ولأن الخزائن والرفوف ما زالت من الخشب الطبيعي ، ولأن الموظفين يضطرون إلى غمس ريش كتابتهم في المحابر واستخدام ورق النشاف ، ولا بد أن هناك من يعتبرنا متوقفين بصورة مضحكة في التاريخ ، ومن يطالب السلطة بالإدخال السريع للتكنولوجيا المتطورة في خدماتنا ، ولكن إذا كان صحيحاً أن القوانين والأنظمة حساسة وسريعة التأثر لكونها عرضة للتغيير والتبديل في كل لحظة ، إلا أن الشيء نفسه لا ينطبق على التقاليد التي هي ،بحد ذاتها ، سواء بمجملها أو بجوهرها ، ثابتة وغير قابلة للتبدل . فلا يمكن لأحد أن يعود إلى الماضي للانتقال من تقليد ولد في الزمن ، وتغذى وتدعم مع الزمن . ولا يمكن لأحد أن يقول لنا إن كل ما هو موجود لم يكن موجوداً ، وليس هناك من يجرؤ على الرغبة ، وكأنه طفل ، في عدم حدوث

ما قد حدث . وإذا وجد من يفعلون ذلك فإنهم إنما يبددون وقتهم . هذه هي أسس إدراكنا وقوتنا ، هذا هو الجدار الذي أمكن لنا أن نحمي وراءه ، حتى يومنا هذا ، هويتنا حيناً ، واستقلالنا الذاتي حيناً آخر . وهكذا يجب علينا أن نستمر . وهكذا سنستمر ما لم تُشر لنا رؤى جديدة إلى حاجتنا لسبل جديدة .

إلى هنا لم يبرز أي جديد في خطاب الرئيس ، وإن تكن تلك هي المرأة الأولى التي يُسمع فيها داخل المحفوظات العامة شيء يشبه إعلاناً رسمياً للمبادئ . فقد كانت العقلية الموحدة للموظفين تتشكل قبل كل شيء من خلال الممارسة العملية للعمل ، التي نُظمت منذ الأزمنة الأولى بصرامة ودقة ، إلا أنه ، في الأجيال الأخيرة ، ربما بسبب الإرهاق التاريخي للمؤسسة ، تبدت بعض مظاهر التهاون الخطيرة والمستمرة التي نعرفها ، والمُستنكَرة حتى على ضوء أشد الأحكام رأفة . فكر الموظفون الذين مُسَّ وعيهم المثلوم ، بأن هذا هو الموضوع الرئيسي للمحاضرة المفاجئة ، ولكنهم سرعان ما تبينوا وهمهم . ولو أنهم كانوا قد انتبهوا جيداً إلى الملامح التعبيرية لوجه المدير ، لأدركوا على الفور أن هدفه لم يكن ذا طبيعة انضباطية ، ولا الإشارة إلى توبيخ عام ، وإلا لكانت كلماته ، في هذه الحالة ، دوت مثل ضربات جافة ، واكتسى وجهه كله بلامبالاة مزدرية . ولكن هذه العلامات لم تبدُ مع ذلك في سلوك الرئيس ، وإنما بدا عليه ما يكاد يشبه حال من هو معتاد على النصر دائماً ، ووجد نفسه ، للمرة الأولى في الحياة ، حيال قوة أكبر من قوته . وكانت هناك قلة من الموظفين ، خصوصاً نائبا المدير وأحد المأمورين ، اعتقدوا بأن الجملة الأخيرة ، التي نطق بها هي إعلان عن الإدخال القريب للتحديث الذي كان عملة رائجة خارج جدران المحفوظات العامة ، ولكنهم لم يتأخروا كذلك في الاعتراف ، بحيرة ، بأنهم قد أخطأوا . كان المدير يواصل كلامه ، ولكن لا يخدعن أحد نفسه معتقداً بأن الأفكار التي أعرضها ستقودنا ببساطة إلى فتح أبوابنا للمخترعات

الحديثة ، لأن ذلك ما كان ليحتاج منا إلى التأمل ، إذ يكفي استدعاء تقني متخصص في هذه الشؤون ، وستتمكن بذلك ، خلال أربع وعشرين ساعة ، من ملء المكان بآلات من كل نوع . وبالرغم من شدة تأملي لإعلان ذلك ، ومن شدة استغرابكم واستنكاركم ، فإن ما ترمي تأملاتي إلى إثارته يؤثر على أحد المظاهر الأساسية في تقاليد المحفوظات العامة ، وأعني به ، التوزيع المكاني للأحياء والأموات ، والفصل المصطنع بينهم ، ليس في أرشيفين مختلفين وحسب وإنما كذلك في منطقتين مختلفتين من المبنى . سُمع همس خفيف جداً ،كما لو أن التفكير المشترك للموظفين المذهولين قد صار مسموعاً ، ولا يمكن للأمر أن يكون غير ذلك ، لأن أياً منهم لم يجرؤ على النطق بكلمة . وواصل المدير ، إنني أتفهم انزعاجكم ، لأنني أنا نفسي ، حين فكرتُ بالأمر ، أحسست كما لو أنني أرتكب هرطقة ، بل ما هو أسوأ من ذلك ، فقد شعرت بأنني أقترف إهانة ضد ذاكرة كل أولئك الذين تولوا ، قبلي ، موقع القيادة هذا ، وضد كل من عملوا في الأماكن التي تشغلونها أنتم الآن ، ولكن القوة الحتمية لما هو ظاهر للعيان اضطرتني إلى مواجهة ثِقل التقاليد ، وهي تقاليد اعتبرتها طوال حياتي راسخة لا مجال لتغييرها . إن الوصول إلى هذا الوعي للوقائع ليس من صنع القدر ولا هو استجابة لإلهام مفاجئ . ففي مناسبتين ، منذ أن صرتُ رئيساً للمحفوظات ، وُجهت إليّ تنبيهات استباقية ، ولكنني لمْ أعرها في ذلك الحين أهمية خاصة ، اللهم إلا تعاملي معها بطريقة لا يمكنني إلا أن أصنفها على أنها أولية ، ولكنها ، وأنا أدرك اليوم ذلك ، كانت تمهد الطريق لكي أحتضن ، بروح منفتحة ، إنذاراً ثالثاً وجديداً ،سأتجنب التعليق عليه في هذه المناسبة ، لأسباب أرى أن الواجب يفرض إبقائها سرية . لقد كانت الحالة الأولى ، والتي تحتفظون جميعكم بذكراها ، عندما اقترح أحد نائبي المدير ، وهو حاضر بيننا ، بأن يتم تنظيم أرشيف الموتى بصورة معكوسة ، أي بجعل الموتى القدماء أبعد والموتى الحديثين أقرب . ونظراً لحجم العمل الذي يتطلبه ذلك النقل ، وآخذاً

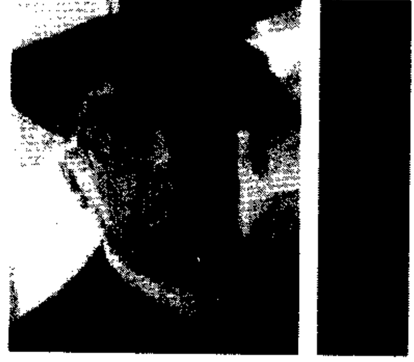
بعين الاعتبار قلة عدد العاملين التي نعاني منها ، بدا الاقتراح غير قابل للتنفيذ بالكامل ، وهذا ما أشعرتُ به صاحب الاقتراح ، وإن كنتُ قد فعلت ذلك بكلمات أُفضل نسيانها ، وأن يتمكن هو بصورة خاصة من نسيانها أيضاً .احمرَّ وجه نائب المدير المعني من السعادة ، والتفت بوجهه إلى الخلف مُظهراً نفسه ، ثم نظر مجدداً نحو رئيسه وهز رأسه بحركة خفيفة ، كما لو أنه يفكر ، لو أنك تولي اهتمامك إلى ما يقال لك . وواصل المدير كلامه ، لم أستطع أن أستوعب آنذاك بأنه وراء فكرة تبدو سخيفة ،وهي كذلك بالفعل إذا ما حكمنا عليها من الوجهة العملية ، ينبض حدس بشيء ثوري بالمطلق ، صحيح أنه حدس لاإرادي ، وغير واع ، ولكن ذلك لا يجعله أقل فعالية . وصحيح أيضاً أنه لا يمكن انتظار أن يجود رأس نائب مدير بما هو أكثر من ذلك ، ولكن كان على المدير ، الذي هو أنا ، سواء بمقتضى واجبات المنصب الفطرية أو بفعل الخبرة ، أن يفهم على الفور ما يخفيه السخف الظاهري المباشر للفكرة . لم ينظر نائب المدير هذه المرة إلى الوراء ، وإذا ما كان وجهه قد احمر حرجاً ، فإن أحداً لم يلحظ ذلك ، لأنه كان يطأطئ رأسه . توقف المدير عن الكلام لحظة ليأخذ نفساً عميقاً ،ثم تابع ، الحالة الثانية هي المتعلقة بذلك الباحث عن مواد لها علاقة بشعارات النبلاء ، الذي اختفى في أرشيف الموتى ولم نعثر عليه إلا بعد مرور أسبوع ، وكان على وشك الموت ، بعد أن فقدنا كل الآمال بالعثور عليه حياً . وحيث أنها حالة ذات مواصفات عامة ، إذ ليس هناك على ما أعتقد من لم يضع مرة واحدة على الأقل في المتاهة ، فقد اكتفيتُ باتخاذ التدابير التي تفرض نفسها ، فأصدرتُ أمراً داخلياً يقضي بفرض استخدام خيط آريان ، وهي تسمية كلاسيكية ، وتهكمية أيضاً ، إذا ما سمحتم لي باستخدام هذه الكلمة ، للحبل الذي احتفظ به في درج منضدتي . وما يؤكد صواب هذا الإجراء هو واقع عدم حدوث حالة مماثلة أو حتى مشابهة منذ ذلك الحين . مع الوصول إلى هذه النقطة ، ووفق هذا الاستعراض ، يجدر

بنا التساؤل عن النتائج التي استخلصتها من قضية الباحث عن شعارات النبلاء التائه ، وسأقول ، بكل تواضع ، إنه لو لم تقع مؤخراً بعض الوقائع ، ولو أن هذه الوقائع المذكورة لم تستتر في داخلي بعض التأملات ، لما كنتُ توصلتُ مطلقاً إلى فهم العبثية المزدوجة التي يمثلها فصل الأموات عن الأحياء . إنها عبثية في المقام الأول من الوجهة التوثيقية ، إذا اعتبرنا أن الطريقة الأسهل للعثور على الأموات هي في البحث عنهم حيث يوجد الأحياء ، لأن هؤلاء ، بحكم كونهم أحياء ، نستبقيهم دوماً أمام أعيننا ، ولكنها عبثية أيضاً ، في المقام الثاني ، من وجهة نظر الذاكرة ، فما لم يتواجد الأموات بين الأحياء ، فإن الأمر سينتهي بهم عاجلاً أو آجلاً إلى غياهب النسيان ، وعندما سنحتاج إليهم ، وهذا ما سيحدث كما هو معروف على المدى القريب أو البعيد ، فإن العثور عليهم سيكون (مدوخاً)، واعذروني لهذا التعبير العامي . يجب أن يكون واضحاً في ذهن جميع من يستمعون إليّ هنا ، دون تمييز في المراتب الوظيفية أو المقامات الشخصية ، بأنني أتكلم في شؤون تتعلق ، حصراً ، بهذه المحفوظات العامة ، وليس بالعالم الخارجي ، حيث يجري دفن الأموات ، لأسباب مرتبطة بالحفاظ على الصحة البدنية والسلامة الذهنية للأحياء . ولكنني أتجرأ على القول بأن هذا الحفاظ على الصحة البدنية والسلامة الذهنية تحديداً ، هو الذي يفرض علينا نحن ، من نعمل في المحفوظات العامة للسجل المدني ، نحن ، من نكتب ونحرك أوراق الحياة والموت ، أن نجمع الأحياء والأموات في أرشيف واحد ، نطلق عليه ببساطة اسم الأرشيف التاريخي ، ونجعلهم مجتمعين لا ينفصلون في هذا المكان ، لأن القانون والعادات والخوف لا تسمح بمثل ذلك خارج هذه الجدران . وبناء عليه ، سوف أُوقِّع أمراً يتحدد فيه أولاً ، أنه ابتداء من تاريخ هذا اليوم ، سيبقى الأموات في الأماكن نفسها من الأرشيف التي كانوا يشغلونها وهم أحياء ، ثانياً ، ستبدأ بصورة تدريجية ، ملفاً ملفاً، ووثيقة وثيقة ، إعادة الموتى السابقين ، ابتداء من أحدثهم عهداً وحتى

أقدمهم ، إلى الأرشيف الذي سيتحول إلى حاضر الجميع . وأنا أدركُ أن النقطة الثانية تحتاج لعشرات السنين كي تتحقق ، وأنه لن يتاح لنا ، وربما للجيل التالي ، أن نشهد اللحظة التي ستعود فيها أوراق الميت الأخير، البالية ، التي نخرها العث ، وسوّدها غبار القرون ، إلى العالم الذي سُحبت منه بعمل عنف أخير لا مبرر له . وبما أن الموت النهائي هو الثمرة الأخيرة لإرادة النسيان ، فسوف يكون بإمكان إرادة التذكر أن تخلد الحياة . ربما كنتم ستتعللون ، بركاكة مفترضة ، لو أنني طلبت رأيكم ، بأن ديمومةً مثل هذه لن تنفع من ماتوا في شيء . وهذه ليست إلا حجة من لا يرى أبعد من أنفه . ففي حالة إبداء رأيكم هذا ، وكذلك في حالة رؤيتي أنه من الضروري الرد عليه ، فإنني سوف أوضح بأني كنتُ أتحدث هنا عن الحياة فقط ، وليس عن الموت ، وإذا كنتم لم تفهموا هذا من قبل ، فلأنكم لن تكونوا قادرين مطلقاً على فهم أي شيء .

حالة التوقير التي استمع بها الحضور للجزء الأخير من الخطاب ، تزعزعت بعنف بسبب سخرية الكلمات الأخيرة . عاد المدير ليكون الرئيس الذي يعرفونه منذ الأزل ، الرئيس المتغطرس والمتهكم ، الجازم في أحكامه ، الصارم في الانضباط ، مثلما قال بعد ذلك بوضوح ، من أجل مصلحتكم أنتم فقط ، وليس من أجل مصلحتي ، يتوجب علي أن أقول لكم إن أسوأ خطأ ترتكبونه على امتداد حيواتكم هو أن تعتبروا حديثي إليكم بقلب وعقل منفتحين هو علامة ضعف شخصي أو انتقاص للسلطة الرسمية . وإذا كنتُ لم أقتصر ببساطة على إصدار الأمر ، دون تفسيرات ، مثلما يخولني منصبي ، فلأنني أريدكم فقط أن تفهموا الأسباب العميقة لقراري ، ولأنني أرغب فقط في أن يتم تنفيذ العمل الذي ينتظركم بروح من يشعر بأنه يبني شيئاً ، وليس باللامبالاة البيروقراطية لمن تلقى أمراً بجمع أوراق إلى أوراق . الانضباط سيبقى في هذه المحفوظات مثلما كان على الدوام ، لا سهو ، لا هراء ، لا كلمات ليست لها علاقة مباشرة بالخدمة ، لا دخول بعد

الوقت المحدد ، ولا أي إهمال في السلوك الشخصي ، سواء في الأسلوب أو المظهر .وفكر دون جوزيه ، هذا موجه إليّ ، لأني لم أحلق ذقني ، ولكنه لم يقلق ، فقد يتوقف التلميح عند هذا الحد ، لكنه طأطأ رأسه على كل حال ببطء شديد ،مثل تلميذ لم يحفظ الدرس ويريد التملص من استدعائه إلى السبورة . بدا أن الخطبة قد بلغت منتهاها ، ولكن أحداً لم يتحرك ، لأن عليهم انتظار الأمر بالعودة إلى العمل ، ولهذا فزعوا جميعهم عندما قال المدير منادياً بنبرة قوية وجافة ، دون جوزيه ، نهض المنادى بسرعة ،ما الذي تريده مني ، ولم يعد يفكر في أن سبب النداء الفظ هو لحيته النامية ، فثمة ما هو أخطر بكثير من تأنيب عادي في طريقه إليه ، فهذا هو ما تعلن عنه ملامح الرئيس القاسية ، وهو ما بدأت تضج به في رأسه نوبة غمّ رهيبة عندما رآه يتقدم باتجاهه ، ويتوقف أمامه ، وكاد دون جوزيه أن يفقد القدرة على التنفس ، منتظراً الكلمة الأولى مثلما ينتظر المحكوم بالإعدام سقوط شفرة المقصلة ، أو شد حبل المشنقة ، أو انطلاق رصاص فصيلة الإعدام ، وعندئذ قال الرئيس ، هذه اللحية . ثم أدار ظهره ، وأومأ إلى نائبيه للبدء في العمل .لقد تبدى في وجهه الآن شيء من الرضى ، لمحة غريبة من السكينة ،كما لو أنه هو أيضاً قد وصل إلى نهاية مهمة ما . لن يأتي أحد ليناقش مع دون جوزيه هذه الانطباعات ، أولاً لكي لا يملأ له رأسه بمزيد من الأوهام ، وثانياً لأن الأمر واضح . ولا كلمة واحدة ليست على علاقة مباشرة بالعمل .



الدخول إلى المقبرة يتم عبر بناء قديم تكاد واجهته أن تكون أخاً توأماً لواجهة المحفوظات العامة للسجل المدني . ففيها الدرجات الحجرية السوداء الثلاث نفسها ، والبوابة القديمة في الوسط نفسها ، والنوافذ الخمس المتطاولة في الأعلى نفسها . ولولا البوابة الخارجية الكبرى ذات المصراعين المجاورة للمقدمة ، فإن الفرق الكبير سيكون في اللوحة المعلقة فوق بوابة الدخول ، وهي مكتوبة كذلك بحروف من الملاط ، وتقول المقبرة العامة . البوابة الكبرى مغلقة منذ سنوات طويلة ، حين تبين أن الدخول منها لم يعد عملياً ، ولا يفي تماماً بالهدف الذي كُرست له ، وهو السماح بدخول مريح ليس للموتى ومرافقيهم وحسب ، وإنما كذلك للزائرين الذين سيأتون لزيارة أولئك الموتى لاحقاً . ومثلما في كل مقابر هذا العالم وأي عالم آخر ، بدأت المقبرة كشيء صغير جداً ، قطعة أرض مقتضبة خارج ما كان يشكل جنين المدينة ، مفتوحة لهواء الأرياف الطلق ، ولكنها فيما بعد ، مع مرور الزمن ، ومثلما هو مقدر ، لسوء الحظ ، راحت تنمو ، وتنمو ، وتنمو ، إلى أن تحولت إلى المقبرة الهائلة التي هي عليها اليوم . في البدء كان كل شيء محصوراً بسور ، وطوال أجيل ، كلما أخذت الفسحة الداخلية تضيق على سكن الموتى أو حركة الأحياء العملية ، كان يحدث الشيء نفسه الذي يجري في المحفوظات العامة،

تُهدم الجدران ويُعاد بناؤها إلى الوراء قليلاً . وفي أحد الأيام ، وهذا مضى عليه حوالي أربعة قرون ، خطرت للقيِّم على المقبرة في ذلك الحين فكرة فتحها من كل الجهات ، باستثناء الجهة المطلة على الشارع ، متذرعاً بأنها الطريقة الوحيدة لتنشيط العلاقة العاطفية بين من هم في الداخل ومن هم في الخارج ، والتي كانت قد تقلصت آنذاك ، وهو ما يمكن لأي شخص أن يتحقق منه إذا ما دقق في الإهمال الذي كانت تعانيه القبور ، وخصوصاً القديمة منها . وكان ذلك القيِّم يعتقد بأن الجدران ، على الرغم من فائدتها الإيجابية من الناحية الصحية والتجميلية ، إلا أنها تنتهي إلى إشاعة تأثير خبيث بإطلاقها أجنحة النسيان ، وهو ما يجب ألا يفاجئ أحداً ، إذا ما تمثلنا الحكمة الشعبية المعروفة مذ صارت الدنيا دنيا ، بأن القلب لا يشعر بما لا تراه العين . لدينا أسباب كثيرة للاعتقاد بأن دوافع ذات جذر داخلي فقط ، هي التي قادت رئيس المحفوظات إلى اتخاذ قرار توحيد أرشيفي الموتى والأحياء ، مخالفاً بذلك التقاليد والروتين ، ليدمج بهذه الطريقة المجتمع البشري في المنطقة التوثيقية المحددة ضمن صلاحياته . ولهذا يصير من الصعب علينا تفهم التقاعس اللاحق في إبراز الدرس الريادي لقيِّم مقبرةٍ بائس وبدائي ، وقليل الذكاء دون شك ، مثلما هو طبيعي في حرفته وفي زمانه ، ولكنه ذو حدس ثوري ، والأدهى من كل ذلك ، ونحن نسجله بحزن ، أنه لا يوجد على قبره لوحة وقورة ، تدل الأجيال اللاحقة على مأثرته . بل على العكس من ذلك ، فمنذ أربعة قرون تُوجَّه اللعنات ، والشتائم ، والافتراءات ، والأهاجي إلى ذكرى ذلك المجدد التعس ، واعتباره المسؤول التاريخي عن الوضع الحالي للمقبرة الأثرية ، الذي يصفونه بالكارثة الوخيمة والفوضوية ، خصوصاً وأن المقبرة العامة لم تبق دون جدران تحيط بها فقط ، بل صار من المستحيل أن يشيد لها سور في أي يوم من الأيام . فلنوضح الأمر بصورة أفضل . كنا قد قلنا سابقاً بأن المقبرة قد نمت ، ولم يحدث ذلك طبعاً بفضل قدرتها الذاتية

على التكاثر ، كما لو أن الموتى ، واسمحوا لي بهذا المثال المشؤوم ، راحوا ينجبون أمواتاً دون حساب ، وإنما لأن المدينة كانت تتزايد سكانياً فتتزايد بالتالي قبورها أيضاً . عندما كانت المقبرة ما تزال محاطة بسور ، حدثت أكثر من مرة ، في فترات متتالية ، تلك الظاهرة التي سيُطلق عليها فيما بعد ، بلغة البيروقراطية البلدية ، طفرات التوسع السكاني العمراني . وشيئاً فشيئاً بدأت الحقول الفسيحة التي وراء المقبرة بالتحول إلى مناطق مأهولة ، ونشأت تجمعات سكانية صغيرة ، ضياع ، دساكر ، إقامات ثانية ، راحت تنمو بدورها هنا وهناك ، ويتصل بعضها ببعض ، ولكنها تركت فيما بينها مع ذلك مساحات فسيحة خالية هي حقول الزراعة ، أو الغابات ، أو المراعي ، أو الآجام . وفي هذه المساحات بالذات راحت تتمدد المقبرة العامة بعد أن هدموا أسوارها . ومثلما يبدأ فيضان بغمر المستويات المنخفضة ،متلوياً في الوديان ، ليأخذ بعد ذلك بالارتفاع متثاقلاً على السفوح ، هكذا راحت القبور تكتسح الأرض ، ملحقة في أحيان كثيرة أضراراً خطيرة بالزراعة ، حين لم يعد أمام مالكي الأراضي ، مدفوعين بالحصار ، من مخرج سوى بيع بساتينهم ، أو أنها أحاطت في أحيان أخرى ببساتين التفاحيات ، وحقول القمح ، والبيادر ، وزرائب الماشية ، تحت نظر السكان على الدوام ، وفي أحيان كثيرة بطريقة يمكن وصفها بالباب مقابل الباب . إذا ما نُظر إلى المقبرة العامة من الفضاء ، فإنها تبدو أشبه بشجرة مطروحة أرضاً ،جذعها قصير وثخين ، تشكله النواة الأصلية للمدافن ، ومنه تتفرع أربعة أغصان غليظة ، متجاورة المنبت ، ولكنها تتشعب بعد ذلك في تفرعات متوالية ، تمتد حتى تضيع عن البصر ، مشكلة ، على حدّ قول شاعر ملهم ، شجرة وارفة يختلط فيها الموت بالحياة ، مثلما تختلط على الأشجار الحقيقية العصافير بالأوراق . هذا هو السبب الذي أدى إلى التوقف عن استخدام البوابة الرئيسية للمقبرة العامة كمدخل للمواكب الجنائزية . لم تعد البوابة تُفتح إلا في

أوقات متباعدة ، عندما يتقدم باحث متخصص بالأحجار القديمة ، بعد أن يكون قد درس نصباً جنائزياً من أزمنة المقبرة الأولى ، بطلب تصريح لاستنساخ بعض القوالب ، مع ما يتبع ذلك من إحضار مواد أولية ،مثل الجص وألياف القنب والأسلاك ، ومواد تكميلية في بعض الأحيان ، مثل التقاط صور فوتوغرافية دقيقة وحساسة ، من تلك التي تتطلب مصابيح إضاءة ، وكشافات ، وبطاريات ، وأجهزة قياس شدة الضوء ، ومظلات ومعدات أخرى لا يُسمح ،من أجل عدم تشويش العمل الإداري ، بإدخالها من الباب الصغير الذي يصل داخلياً بين المبنى الإداري والمقبرة .

على الرغم من هذا التراكم المفرط للتفاصيل ، التي ربما اعتُبرت بلا معنى ، من حيث أن الغابة ، في عودة إلى المقارنات النباتية ،تحول دون رؤية الأشجار ، وهناك احتمال كبير بأن أحد مستمعي هذه القصة ، من المستمعين المتيقظين والمهتمين ، ممن لم يفقدوا الإحساس بمطلب تنظيمي متوارث لعمليات ذهنية محددة ، عبر المنطق المكتسب من المعارف بصورة خاصة ، نقول إن هناك احتمالاً كبيراً بأن ذلك المستمع سيقف جذرياً ضد وجود ، بل وضد تعميم مثل هذه المقابر غير المنضبطة والهذيانية ، التي توشك أن تصل إلى السير ، كتفاً إلى كتف تقريباً ، مع الأماكن التي خصصها الأحياء لاستخدامهم الخاص ، مثلما هي البيوت ، والشوارع ، والساحات ، والحدائق والأماكن العامة الأخرى ، كالمسارح ، ودور السينما ، والمقاهي ، والمطاعم ، والمستشفيات ، ومصحات الأمراض العقلية ، ومفوضيات الشرطة ، وحدائق الأطفال ، والمناطق الرياضية ، ومواقع المهرجانات والمعارض ، ومواقف السيارات ، والمتاجر الكبرى ، والحوانيت الصغيرة ، والأزقة ، والحواري ، والجادات . وانه ، على الرغم من تفهم الحاجة الماسة لنمو المقبرة العامة ، في تناسب تكافلي مع تطور المدينة وتزايد سكانها ، يرون أن الحيز المخصص للراحة النهائية يجب أن يخضع لحدود صارمة وفق أنظمة صارمة . فقطعة أرض عادية مربعة ذات جدران عالية ،

دون زخارف أو فخفخة في الزينة المعمارية ، ستكون أكثر من كافية، بدل هذا الأخطبوط الضخم ، وهو في الحقيقة أشبه بالأخطبوط منه بالشجرة ، مهما سبب ذلك من آلام للتخيلات الشعرية ، الذي يتمدد خارجاً بأذرعه الثمانية ، الستة عشر ، الاثنين والثلاثين ، الأربعة والستين ، وكأنه يريد احتواء العالم بأسره . وان الأسلوب السليم المعمول به في البلدان المتحضرة ، مع مزايا أثبتتها التجارب ، يعمد إلى إبقاء الأجساد تحت التراب لبضع سنوات ، تكون خمس سنوات عموماً ، يتم في نهايتها ، باستثناء حدوث معجزة عدم التفسخ ، استخراج القدر القليل المتبقي من الجسد بعد تعرضه للتآكل بفعل الكلس الحي وهضم الديدان ، من أجل إفساح المجال لشاغلين جدد . وفي البلدان المتحضرة لا وجود لهذه الممارسة العقيمة المتمثلة في الأماكن الأبدية ، ولا لهذه الفكرة التي ترى أنه يجب عدم المس بأي قبر إلى الأبد ، كما لو أنه يمكن للموت أن يكون سرمدياً ما دامت الحياة السرمدية غير ممكنة . وها هي النتائج ظاهرة للعيان ، متمثلة في هذه البوابة المحكومة بالإغلاق ، وبفوضى الحركة الداخلية ، والتفاف الجنازات الذي يصبح أطول فأطول للدوران خارج المقبرة العامة قبل أن تصل إلى مستقرها ، في أقصى أي واحد من أذرع الأخطبوط الأربعة والستين ، والتي لا يمكن بلوغها دون الاستعانة بدليل يتقدم الجنازة . وبالطريقة نفسها التي في المحفوظات العامة للسجل المدني ، مع أنه ، بسبب نسيان مؤسف ، لم تجر الإشارة إلى هذه المعلومة في حينه ، فإن الشعار غير المكتوب لهذه المقبرة العامة هو كل الأسماء ، بالرغم من أنه لا بد من الاعتراف ، في الواقع ، بأن هاتين الكلمتين تنطبقان أكثر على المحفوظات ، لأن الأسماء كلها موجودة فيها بالفعل ، أسماء الأموات أو أسماء الأحياء على السواء ، أما المقبرة ، وبسبب طبيعتها كمستقر أخير ومستودع أخير ، فعليها أن ترتضي دوماً بأسماء الميتين فقط . ومع ذلك ، فإن هذه البديهية الرياضية غير كافية

لإسكات القائمين على المقبرة العامة ، الذين يهزون أكتافهم حيال ما يسمونه النقص العددي الظاهري ، ويعلقون ، مع الزمن والصبر سينتهي الأمر بالجميع هنا ، فمحفوظات السجل المدني ، إذا ما نظرنا إلى الأمر بتمعن ، ليست سوى رافد للمقبرة العامة . ولا حاجة للقول إن المحفوظات العامة ترى في وصفها بالرافد إهانة مشينة . وبالرغم من هذه الخصومات ، وهذه المنافسات المهنية ،فإن العلاقات بين موظفي المحفوظات والمقبرة هي ، بكل وضوح ، ودية ، وتقوم على الاحترام المتبادل ، وذلك لأنهم في العمق ، فضلاً عن التعاون المؤسساتي الذي يضطرون إليه من خلال التواصل الرسمي والتقارب الموضوعي لأنظمتهم الخاصة ، يعرفون أنهم إنما يحفرون في طرفي الكَرْم نفسه ، هذا الكرم الذي يدعى حياة ويقع بين العدم والعدم .

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يذهب فيها دون جوزيه إلى المقبرة العامة . فالحاجة البيروقراطية للتأكد من بعض الإجراءات ، توضيح بعض التناقضات ، مقارنة بعض البيانات ، تدقيق بعض الاختلافات ، تضطر موظفي المحفوظات إلى التردد بكثرة على المقبرة ، والكتبة هم الذين يذهبون في الغالب ، وقلما يذهب المأمورون ، أما نائبا المدير والمدير نفسه فلا حاجة إلى الإشارة إلى أنهم لا يذهبون مطلقاً .كما أن كتبة ومأموري المقبرة العامة ، يذهبون بين حين وآخر ،لأسباب مماثلة ، إلى المحفوظات ، وهم يستقبلونهم هناك أيضاً بالترحاب نفسه الذي سيحيطون به دون جوزيه هنا . ومبنى إدارة المقبرة من الداخل ، مثلما هي واجهته ، هو نسخة أمينة وطبق الأصل عن المحفوظات ، ولا بد من التنويه هنا إلى أنه من عادة موظفي المقبرة العامة التأكيد على أن محفوظات السجل المدني هي نسخة عن المقبرة ، وأنها نسخة ناقصة لافتقادها البوابة الخارجية الضخمة ،فيرد موظفو المحفوظات على ذلك بالقول يا لأهمية هذه البوابة التي تبقى مغلقة . ومهما يكن من أمر ، فإننا نجد هنا منضدة

الكونتوار الطويلة نفسها التي تقطع القاعة الفسيحة ، والخزائن العالية نفسها ، وترتيب العاملين نفسه ، على شكل مثلث ، الكتبة الثمانية في الصف الأول ، والمأمورون الأربعة بعدهم ، ويليهم نائبا القيّم ،فهكذا يسميان هنا ، وكذلك القيِّم ،في رأس زاوية المثلث ، وهو ليس مديراً، وإنما هو قيّم . ومع ذلك ، فإن هؤلاء الموظفين الاداريين ليسوا كل العاملين في المقبرة . فعلى مقعدين طويلين ، على جانبي المدخل ، قبالة الكونتوار ، يجلس المرشدون . هناك من لا يزال يطلق عليهم ،بفجاجة ،تسمية حفاري القبور ، كما في الأزمنة الأولى ، لكن تصنيف مرتبتهم المهنية ، في الجريدة الرسمية للمدينة ، هو مرشد في المقبرة ، وهي تسمية إذا ما أمعنا النظر ، وعلى عكس ما يمكن تخيله ، لا ترمي إلى تلطيف متعمد لمداراة الفظاظة المؤلمة لمجرفة تحفر حفرة مستطيلة في الأرض ، وإنما هي التعبير الصحيح عن وظيفة لا تقتصر على إنزال الميت إلى الأعماق ، بل تقوده كذلك على السطح . فهؤلاء الرجال الذين يعمل كل اثنين منهم معاً ، يجلسون منتظرين ، بصمت ، مجيء المواكب الجنائزية ، وعند ذلك يتزودون بوثيقة مرشد المسير التي يملؤها الكاتب المكلف بالميت ، ويركبون في إحدى سيارات الخدمة التي تنتظر في المرآب ، من تلك السيارات التي على مؤخرتها لوحة مضيئة تشتعل وتنطفئ قائلة اتبعني ، مثل المستخدمة في المطارات ، وفي هذه النقطة يكون قيِّم المقبرة العامة على حق تماماً عندما يؤكد بأنهم متقدمون في التكنولوجيا الحديثة على محفوظات السجل المدني ، حيث ما زالت التقاليد تقضي باستخدام ريشة تغمس في المحبرة . والحقيقة أن رؤية العربة المأتمية ومرافقيها يتبعون المرشدين بانصياع عبر شوارع المدينة المنظمة ، وعبر الدروب السيئة في الضواحي ، بينما الضوء يشتعل وينطفئ دون توقف حتى موقع المدفن ، اتبعني ، اتبعني ، اتبعني ، يجعل من المستحيل عدم الإقرار بأن الانتقال من العالم لا يكون إلى عالم أسوأ دوماً . ومع أن هذا التفصيل لا يتمتع بأهمية خاصة في الفهم الإجمالي للقصة ، إلا أنه من المناسب توضيح أن إحدى أبرز المواصفات الشخصية لهؤلاء المرشدين هي أنهم يؤمنون بأن

الكون محكوم فعلاً بتفكير سام متيقظ على الدوام لتلبية الحاجات البشرية ، لأنه لو لم يكن كذلك ، مثلما يتعللون هم ، لما اختُرعت السيارات في اللحظة التي صارت الحاجة إليها ماسة بالضبط ، أي عندما صارت المقبرة العامة شديدة الاتساع وصار العذابُ محنةَ آلام حقيقية في نقل الميت إلى الجلجلة بالوسائل التقليدية ، سواء أكانت العصا والحبل ، أم العربة ذات العجلتين . وإذا ما جرى لفت انتباههم برصانة إلى أنه عليهم أن يكونوا أكثر حذراً في استخدام الكلمات ، لأن الجلجلة ومحنة الآلام[1] هما الشيء نفسه ، ولا معنى لاستخدام لفظتين تشيران إلى الآلام التي يسببها نقل شخص لم يعد قادراً على التألم ، فمن المؤكد والمضمون أنهم سيردون علينا بانزعاج بأن كل واحد يعرف نفسه والله وحده هو الذي يعرف الجميع .

دخل دون جوزيه على أي حال ، وتقدم مباشرة إلى منضدة الكونتوار ، موجهاً لدى مروره نظرة فاترة إلى المرشدين الجالسين الذين لا يتعاطف معهم لأن وجودهم يخل بتوازن العاملين العددي لصالح المقبرة . ولأنه معروف في المكان ، لم يكن بحاجة إلى تقديم بطاقة هويته كموظف في السجل المدني ، أما وثيقة التكليف الشهيرة ، فلم يخطر له حتى مجرد إحضارها معه ، لأنه يمكن لأقل الكتبة خبرة أن يكتشف ، بنظرة واحدة ، أنها مزيفة من السطر الأول حتى الأخير . ومن بين الموظفين الثمانية الذين يصطفون وراء الكونتوار ، اختار دون جوزيه واحداً ممن يستلطفهم أكثر من سواهم ، وهو رجل أكبر منه سناً بقليل ، يبدو عليه سهو من لم يعد ينتظر حياة أخرى . لقد كان يجده هناك على الدوام ، مثل الآخرين ، أياً كان اليوم الذي يذهب فيه . وكان يظن في البدء بأن موظفي المقبرة لا يتمتعون بالعطلة الأسبوعية ولا بإجازات ، وأنهم يعملون طوال أيام السنة ، إلى أن أخبره أحدهم بأن الأمر ليس

(١) يستخدم كلمتي calvario و golgota ، وهما تشيران إلى اسم الجبل الذي صُلب عليه السيد المسيح. وكلتاهما تشيران معنوياً إلى محنة العذاب. وإن كانت الأولى أكثر دلالة على هذا المعنى، بينما الثانية أكثر دلالة على اسم الموقع.

كذلك ، وبأن هناك فرقاً احتياطية يتم التعاقد معها للعمل أيام الآحاد ، فنحن لم نعد في زمن العبودية يا دون جوزيه . ويبدو أنه لا طائل من القول إن رغبة موظفي المقبرة العامة ، منذ سنوات طويلة ، هي أن يتولى أولئك الاحتياطيون العمل كذلك في الفترة المسائية من أيام السبت ، ولكن مطالبهم لم تُقبل لذرائع تتعلق بالميزانية والوضع الاقتصادي ، ولم ينفع موظفو المقبرة في شيء إشارتهم إلى أن موظفي محفوظات السجل المدني لا يعملون أيام السبت إلا في الفترة الصباحية ، وكانت فتوى البلاغ السامي الذي رفض الطلب هي ، الأحياء يستطيعون الانتظار ، أما الموتى فلا . وعلى كل حال ، كان من المريب أن يظهر هناك موظف من المحفوظات في مأمورية رسمية مساء يوم السبت تحديداً ، بينما يفترض فيه أن يستمتع بالعطلة الأسبوعية مع أسرته ، يتنزه في الريف أو يشغل نفسه في إصلاحات منزلية تؤجل إلى أن يُتاح الوقت لإنجازها ، أو يخرج للتسكع على الأقل ، أو يتساءل عن جدوى العطلة عندما لا نعرف ما الذي نفعله بها . ولتفادي استهجانات غير مواتية ، سرعان ما تتحول بسهولة إلى احراجات ، سعى دون جوزيه إلى استباق فضول محادثه ، مقدماً التبرير الذي جاء به جاهزاً ، إنها قضية استثنائية ، مستعجلة ، نائب مديرنا بحاجة إلى هذه المعلومة يوم الاثنين صباحاً ، ولهذا طلب مني المجيء اليوم إلى المقبرة العامة ، في ساعات فراغي ، آه ، حسن ، قل لي ما هو الموضوع ، إنه بسيط جداً ، نريد أن نعرف فقط متى دُفنت هذه المرأة . تناول الرجل البطاقة التي قدمها إليه دون جوزيه ، واستنسخ الاسم وتاريخ الوفاة على ورقة ، وذهب ليستشير المأمور المختص . لم يفهم دون جوزيه ما كانا يقولانه ، فهنا ، مثلما هي الحال في المحفوظات ، لا يمكن التكلم إلا بصوت خافت ، ولا بد من أخذ بُعد المسافة بعين الاعتبار أيضاً ، ولكنه رأى أن المأمور يهز رأسه مؤكداً ، ومن خلال حركة شفتيه ، لم يخامره الشك في ما يقوله ، يمكنه الحصول

على المعلومة .بحث الرجل في فهرس البطاقات الموجود تحت منضدة الكونتوار ، حيث تُحفظ بطاقات موتى الخمسين سنة الأخيرة ، أما الآخرون فيملؤون الخزائن العالية التي تمتد إلى داخل المبنى ، فتح الرجل أحد الأدراج ، وجد بطاقة المرأة ، استنسخ على الورقة التاريخ المطلوب ورجع إلى حيث يقف دون جوزيه ، ها هو ، قال ذلك ثم أضاف وكأنه يشعر بأنه يمكن لمعلومة إضافية أن تكون مفيدة ، إنها في قسم المنتحرين . أحس دون جوزيه بتشنج مباغت في بواب معدته ، وهذا هو المكان ، على وجه التقريب ، الذي يوجد فيه ، حسب مقال قرأه منذ زمن في مجلة علمية ، نوع من النجمة العصبية متعددة الأطراف ، ذات نقطة اتصال شعاعية يسمونها ضفيرة عصبية شمسية ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يداري وقع المفاجأة بتصنع عدم المبالاة آلياً ،فسبب الوفاة وارد حتماً في شهادة الوفاة الضائعة ، والتي لم يرها قط ، ولكنه لا يستطيع إظهار عدم معرفة ذلك ، وهو الموظف في المحفوظات ، فضلاً عن انه قادم إلى المقبرة في مهمة رسمية . طوى الورقة بكل حرص وخبأها في محفظته ، وشكر من قدم له المعلومة ، دون أن ينسى أن يضيف بأنه سيكون تحت تصرفه في كل ما يحتاجه من المحفوظات ، مما هو ضمن إمكانياته ، وهي مجرد كلمات يتبادلها الموظفون ، لأن أياً منهما لا يعدو كونه كاتباً. وبعد أن مشى خطوتين باتجاه الباب ، رجع قائلاً ،لقد خطرت لي الآن فكرة ، سأستغل لحظة من هذا المساء للقيام بجولة في المقبرة ،فإذا ما سمحتم لي بالدخول من هنا ، ستجنبونني عناء الدوران في التفافة طويلة ، فقال له الكاتب ، انتظر ريثما أستفسر .نقل الرغبة إلى المأمور الذي تحدث معه من قبل ، ولكن هذا ، بدلاً من أن يرد عليه ،نهض وتوجه إلى نائب القَيِّم في قسمه ، وبالرغم من أن المسافة كانت أكبر من المرة السابقة ، إلا أن دون جوزيه فهم من إيماءة الرأس وحركة الشفتين بأن طلبه سيستجاب ويُسمح له بالمرور عبر الباب الداخلي . لم

يرجع الكاتب فوراً إلى الكونتوار ، بل فتح أولاً إحدى الخزائن وأخرج منها صحيفة كرتون كبيرة ، وضعها بعد ذلك تحت غطاء آلة تنبعث منها بعض الأضواء الملونة . ضغط زراً ،وسُمعت ضجة حركة آلية ، أضيئت أنوار أخرى ثم خرجت ورقة أصغر حجماً من فتحة جانبية في الآلة . أعاد الكاتب صحيفة الكرتون إلى الخزانة ، ورجع أخيراً إلى الكونتوار ، من الأفضل أن تأخذ معك خريطة ، فقد وقعت حالات ضاع فيها بعض الأشخاص ، وتطلب العثور عليهم تعقيدات هائلة ، إذ يتوجب على المرشدين في مثل هذه الحالات أن ينطلقوا للبحث عنهم بالسيارات ، فيضطرب سير العمل ، وتتعطل الجنازات في الانتظار هنا في الخارج ، الناس يصابون بالذعر ويفقدون أعصابهم بسهولة ، يكفي أن يواصلوا المشي في خط مستقيم ، وفي الاتجاه نفسه ، ليصلوا بذلك إلى مكان ما ، الصعوبة الحقيقية هي في أرشيف الموتى في المحفوظات العامة ، فهناك لا وجود لخطوط مستقيمة ، نظرياً معك حق ، ولكن الخطوط المستقيمة هنا هي مثل خطوط متاهة الممرات ، تتقاطع فيما بينها طوال الوقت ، وتبدل اتجاهها ، تدور حول قبر ، فلا نعود نعرف فجأة أين نحن ، نحن نستخدم في المحفوظات عادة خيط آريان ، وهو لا يخيب ظننا أبداً ،لقد استخدمناه نحن أيضاً في إحدى الفترات ، ولكن لوقت قصير ، فقد تقطع الخيط في عدة مناسبات ، ولم يتم التوصل إلى معرفة الفاعل ولا سبب إقدامه على ذلك ، لم يكن الموتى وراء ذلك بالتأكيد ، من يدري ، هؤلاء الأشخاص الذين ضلوا طريقهم هم أناس يفتقرون إلى المبادرة ، فقد كان بإمكانهم التوجه مستعينين بالشمس ، لقد فعل بعضهم ذلك ، ولكن السيئ في الأمر هو أن تكون السماء غائمة ،ليس لدينا مثل هذه الآلات في المحفوظات ، أقول لك إنها تساعد كثيراً في العمل . لم يعد بإمكانهما مواصلة المحادثة لمزيد من الوقت ، فقد نظر إليهما المأمور مرتين ، وفي المرة الثانية قطب جبينه ، وكان دون جوزيه هو الذي نبه

محادثه بصوت خافت ، مأمورك وجه إلينا نظرتين ، لا أريد لك أن تتعرض لمشاكل بسببي ،سأدلك فقط على المكان الذي دُفنت فيه المرأة ، لاحظ نهاية هذا التفرع ، الخط المتعرج هنا هو جدول ما زال يشكل حداً، والقبر موجود عند هذا المنعطف ، يمكنك التعرف عليه من الرقم ، وماذا عن الاسم ، أجل ، إذا كان الاسم قد نُقش عليه ،ولكن الأرقام هي التي تؤخذ في الاعتبار عندنا ،أما الأسماء فلا تتسع لها الخريطة ، وإلا سنحتاج إلى خريطة بحجم العالم ، بمقياس رسم واحد إلى واحد ،أجل ، واحد إلى واحد ،وحتى في هذه الحالة سيغطي بعض الأسماء بعضها الآخر ، وهل الخريطة جديدة ، إننا نجددها كل يوم ، وبالمناسبة ، قل ما الذي تظنه بي وأنا أسعى لرؤية قبر المرأة ، لا شيء ، ربما لأنني كنتُ سأفعل الشيء نفسه لو كنتُ مكانك ، لماذا ، من أجل التوصل إلى اليقين ، بأنها ميتة ،لا ،اليقين بأنها كانت على قيد الحياة .نظر المأمور للمرة الثالثة ،وتحرك كمن هو يوشك على النهوض ، ولكنه لم يُكمل حركته، فقد ودّع دون جوزيه الكاتب على عجل ، شكراً ، شكراً ،قال ذلك وهو يحني رأسه قليلاً باتجاه القَيِّم ، ذلك المقام الذي يجب أن تنحني له الهامات احتراماً بخضوع على الدوام ، مثلما يحدث عند تقديم الشكر للسماء ، حتى ولو كانت متلبدة ، مع فرق وحيد هو أن الرأس لا ينحني إلى أسفل في هذه الحالة ، وإنما يشرئب إلى أعلى .

أقدم أجزاء المقبرة العامة ،الجزء الذي يتسع إلى بضع عشرات الأمتار في الجهة الخلفية للمبنى الإداري ، هو الذي يفضله علماء الآثار لأبحاثهم . وكانت الأحجار القديمة ، التي أبلى الزمن بعضها إلى حد لم يعد معه ممكناً أن تميز فيها سوى بعض الخطوط شبه المتلاشية التي يمكن لها أن تكون بقايا حروف أو ضربات إزميل أخرق على السواء ، ما تزال موضع مناظرات ومجادلات مكثفة ، ضاع فيها نهائياً ، في معظم الحالات ، الأمل بمعرفة من الذي دُفن تحتها ،وغالباً ما تُناقش تلك الكتابات

المحتملة ، كمسألة حيوية . اختلافات عقيمة ،حول مئة سنة تافهة إلى الأمام أو مئة سنة إلى الوراء ، كانت سبباً في مجادلات طويلة ، عامة أو أكاديمية ،تسفر في أغلب الأحيان ، ليس عن قطيعة عنيفة للعلاقات الشخصية وحسب ، وإنما إلى عداوات قاتلة كذلك . وكانت الأمور تزداد سوءاً عندما يظهر المؤرخون ونقاد الفن ليدسوا ملعقتهم في القضية، لأنه إذا كان ما يزال ممكناً للسلكِ الأركيولوجي أن يتوصل إلى اتفاق حول مفهوم واسع للقِدم يكون مقبولاً من الجميع ، بترك تحديد التواريخ إلى ما بعد ، فإن مسألة ما هو جميل وما هو حقيقي تضع رجال ، ونساء ، علم الجمال والتاريخ على خلاف ، ليشد كل واحد المسألة إلى جهته ، ولا يكون غريباً على الإطلاق رؤية ناقد فني يبدل رأيه فجأة لمجرد أن ناقداً آخر غيّر وجهة نظره فتطابق الرأيان . وعلى امتداد قرون طويلة ، كان السلام الفائق الذي يكتنف المقبرة العامة ، بأجنحته النباتية التلقائية، بأزهاره ، بلبلابه ، بآجامه الكثيفة ،بضفائر زهره وأكاليله ، بقريصه وعوسجه ، وبالأشجار الجبارة التي كثيراً ما تنبش جذورها أحجار المدافن وتُخرج إلى ضوء الشمس عظاماً فاجأتها ، هدفاً وشاهداً على حروب كلامية ضارية وعلى تحولات سريعة بين حين وآخر . وكلما كانت تقع أحداث من هذا النوع ، كان القَيِّم يبدأ بإصدار الأوامر للمرشدين المتوفرين لديه لكي يسرعوا للفصل بين أولئك الأعلام المشاكسين ، وإذا ما تطلب الأمر ، واستدعت الضرورة القصوى حضوره شخصياً ، فإنه يذكّر المتعاركين بسخرية بأنه لا يجدر بهم أن يشعثوا شعورهم من أجل أمر تافه في الحياة ، لأنهم سيجتمعون هناك ، عاجلاً أو آجلاً ، وقد أصبحوا جميعهم صلعاناً .ومثل رئيس محفوظات السجل المدني ، يتعاطى قَيِّم المقبرة العامة السخرية اللاذعة بتألق ، وبهذا يتأكد الاعتداد في اعتبار هذا الجانب من الشخصية ضرورياً من أجل الوصول إلى المناصب الرفيعة ، إضافة بالطبع إلى الكفاءات المعرفية العملية والنظرية في تقنيات التوثيق . ومع ذلك ، فإن المؤرخين ، ونقاد الفن ، وعلماء الآثار يعترفون ،

في بعض الحالات ، بأنهم متفقون على واقع أن المقبرة العامة هي كتالوج كامل ، ومجمع عينات ، وملخص لكل الأساليب ، وخصوصاً أساليب فنون العمارة والنحت والزخرفة ، وهي بالتالي فهرس لكل أساليب الرؤى والعيش والسكن التي وجدت حتى اليوم ، منذ الرسم البدائي الأول لبروفيل جسد بشري ، وقد جرى فتحه والتنقيب عنه في ما بعد بالمعول ، وحتى الفولاذ المقوى بالكروم ، واللوحات العاكسة ، والألياف الاصطناعية ، وزجاج المرايا الذي صار يُستخدم بصورة هذيانية في الزمن الحاضر الذي يدور الحديث عنه .

كانت النصب الجنائزية الأولى مؤلفة من الدُّلمَن[١] ، والسيست[٢]، والاستيلا[٣] ، وبعد ذلك تظهر كصفحة كبيرة ممتدة ، في أعمال حفر بارزة ومجسمة ، المشكايات ، المذابح ، المُصليات ، ومسلات الغرانيت ، وآنية الرخام ، والألواح الحجرية الملساء والمنقوشة ، والأعمدة الدُورية[٤]، والأيونية ، والكورنثية ، وأعمدة الكرتيد[٥] ، والأفاريز ، والأكانتو[٦]، والمُوجهات[٧] ، والأسطح المعمدة ، والعقود الزائفة ، والعقود الحقيقية، والجدران المؤلفة من آجر متراكم ، والضرائح المسورة بأحجار ضخمة، وكوى الإنارة في السقف ، والكوى الجانبية المزخرفة على شكل زهور ، والميازيب ، والنوافذ الكبيرة ، والعقود المثلثة ، والقباب المستدقة، والأضرحة المكسوة بالبلاط ، والزوافر[٨] ، والأعمدة المربعة ، والتماثيل الرابضة التي تمثل رجالاً يعتمرون الخوذ ويحملون سيوفاً ويتسربلون

(١) الدّولمَن dolmen: ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ قوامه حجر مسطح موضوع فوق عدد من الحجارة المنصوبة.
(٢) السيست cista: نوع آخر من الأضرحة.
(٣) الاستيلا estela: نصب على شكل صفيحة حجرية منقوشة توضع فوق الضريح.
(٤) دُوري dorico: طراز معماري إغريقي بدائي، يمتاز بالبساطة.
(٥) الكرتيد cariatid: تمثال امرأة أو رجل يقوم مقام عمود يسند طُنفاً أو إفريزاً.
(٦) أكانتو acanto : زخرفة معمارية تستخدم أساساً في تيجان الأعمدة وتتخذ شكل أوراق نبات شوكي يحمل الاسم نفسه.
(٧) المُوجهة: مثلث مزخرف فوق نافذة أو مدخل بناء معمد.
(٨) زافرة arbotante: نصف قنطرة يُدعم بها عقد أو جدار.

بالدروع ، وتيجان الأعمدة التاريخية وغير التاريخية ، ونقوش الرمان ، والزنابق ، والخالدات ، وأبراج الأجراس ، والقباب ، والتماثيل المستلقية لنساء مشدودات الأثداء ، ولوحات الرسم ، والأقواس ، والكلاب الوفية الرابضة على الضريح ، والأطفال المزنرون ، ومقدمو القرابين ، والنادبات برؤوسهن المغطاة بشالات ، والمسلات ، وزخارف التعاريق الناتئة، والزجاج الملون ، والمنابر ، والمنصات ، والشرفات ، ثم عقود حجرية أخرى ، وتيجان أعمدة أخرى ، وأقواس أخرى ، وبعض الملائكة مبسوطي الأجنحة ، وملائكة آخرون بأجنحة متهدلة ، أوسمة ، جرار فارغة ، أو تُطلق لهباً متصنعاً في نحت على الحجر ، أو يُسحب منها قماش حريري بوهن ، كآبات ، دموع ، رجال مهيبون ، نساء عظيمات ، أطفال مجتثون وهم في عمر الزهور ، مسنون ومسنات لم يعد بإمكانهم انتظار المزيد ، صلبان كاملة ، وصلبان مكسرة ، أدراج ، مسامير صلب ، تيجان شوك ، رماح ، مثلثات غامضة ، بعض الحمائم الفريدة من الرخام ، وأسراب حمائم حقيقية تحلق في دوائر فوق المقبرة . وصمت . صمت لا تقطعه بين حين وآخر إلا خطوات شخص عابر ومحب متلهف للعزلة ، يصله حزن مفاجئ في ضجة قريبة ، حيث ما زال يُسمع صوت بكاء عند حافة جثوة فوقها باقات زهر غضة ،ما تزال رطبة بنسغها ،مخترقة ، إذا كان يمكن قول ذلك ، قلب الزمان ، هذه الثلاثة آلاف سنة من قبور مختلفة الأشكال ، والأرواح ، والظروف ، ومتحدة في الهجران نفسه والعزلة نفسها ، لأن الآلام التي ولدت منها يوماً صارت قديمة جداً بحيث لا يمكن لها أن تجد ورثة . مسترشداً بالخريطة ، ومتأسفاً مع ذلك في بعض اللحظات لافتقاره إلى بوصلة ، كان دون جوزيه يمشي باتجاه قطاع المنتحرين ، حيث دُفنت امرأة البطاقة ، لكن خطواته صارت الآن أقل سرعة ، أقل تصميماً ، وهو يتوقف بين الفينة والفينة ليتأمل تفصيلاً نحتياً ملطخاً بالطحالب أو بأثر انزلاق المطر ، بعض النائحات الصامتات في فاصل بين صرختين ، بعض

الكشف الرصين ، بعض التراتيل الطقوسية ، أو ليتهجى بصعوبة كتابة استرعى خطها انتباهه بصورة عابرة ، ويُفهم ، منذ السطر الأول الذي أمضى وقتاً طويلاً في فك رموزه ، أن هذا الكاتب غير ضليع في الكتابات القديمة ، بالرغم من أنه تفحص في بعض المرات ، هناك في المحفوظات ، رقوقاً تعود إلى هذه العصور تقريباً ، ولهذا لم يتجاوز في الوظيفة مرتبة الكاتب قط . في أعلى ربوة قليلة الارتفاع ، في ظل مسلة كانت في ما مضى علامة مسح جيوديزية ، راح دون جوزيه يجول ببصره في ما حوله ، إلى حيث يصل النظر ، ولا يجد سوى قبور تعلو وتنخفض مع تضاريس الأرض ، متسلقة منحدراً وعراً ،ومسترسلة في المنبسطات . دمدم ، إنها بالملايين ، وفكر عندئذ بمساحات الأرض الشاسعة التي كان يمكن توفيرها لو جرى دفن الأموات وقوفاً ، متلاصقين كتفاً إلى كتف ، في صفوف محكمة ، مثل جيش في وقفة التأهب ، دون أن يكون هناك سوى مكعب حجري فوق رأس كل واحد منهم ، يشير إلى وجوده هناك ، وتُروى على وجوهه الخمسة المرئية الوقائع الأساسية في حياة الميت ، خمسة مربعات حجرية كأنها خمس صفحات ، تضم ملخصاً للكتاب الكامل الذي كان من المستحيل عليه كتابته . وفي ملامسة الأفق تقريباً، بعيداً ،بعيداً ،بعيداً ، يرى دون جوزيه أنواراً تتحرك ببطء ، مثل بروق صفراء تشتعل وتنطفئ بانتظام ثابت ، إنها سيارات المرشدين تستدعي من يمضون في إثرها ، اتبعني ، اتبعني ، تتوقف واحدة منها فجأة ، يختفي ضوؤها ، وهذا يعني أنها وصلت إلى هدفها . نظر دون جوزيه إلى ارتفاع الشمس ، ثم إلى الساعة ،لقد بدأ الوقت يتأخر ،عليه أن يحث الخطى إذا ما أراد الوصول إلى امرأة البطاقة قبل الغسق . استشار الخريطة ، مرّ عليها بإصبعه السبابة كي يستعيد ، بصورة تقريبية ، الطريق الذي قطعه من مبنى الإدارة حتى المكان الذي هو فيه ،قارنه مع ما عليه أن يمشيه، وأوشك أن يفقد الشجاعة .فالمسافة المتبقية في خط نظر مستقيم ،

حسب مقياس الخريطة ، تبلغ خمسة كيلومترات ، ولكن الخط المستقيم في المقبرة العامة لا يستمر طويلاً ،كما قيل سابقاً ، ولا بد من أن يضاف إلى هذه الخمسة كيلومترات التي يطيرها عصفور في الفضاء ، كيلومتران آخران ، بل وثلاثة ، لمن سيجتازها على الأرض . أجرى دون جوزيه حساباً للوقت وللقوة المتبقية في ساقيه ،وسمع صوت التعقل يطلب منه أن يؤجل إلى يوم آخر ، وبترو أكبر ، زيارة قبر المرأة المجهولة ، فبعد أن عرف أين مكانه ، يمكن لأي سيارة أجرة ، أو حافلة ، أن توصله ، بالدوران خارج المقبرة ، إلى مقربة من المكان ، مثلما يفعل ذوو الموتى عندما يحضرون للبكاء على أعزائهم ولوضع زهور جديدة في الجرار الفخارية التي على قبورهم ، أو لاستبدال مائها ، خصوصاً في فصل الصيف . وكان دون جوزيه يُفند هذا التردد عندما وردت إلى ذهنه ذكرى مغامرته في المدرسة ،في تلك الليلة المدلهمة الماطرة ، وذلك السفح الجبلي المائل الذي تحوّل إليه سطح المستودع ، ثم بحثه الجزع في داخل المبنى ، وهو يقطر من رأسه حتى قدميه ، بركبتيه المسلوختين اللتين يحتك بهما البنطال بصورة مؤلمة ، وكيف تمكن ، بالتصميم والذكاء ، من التغلب على مخاوفه وتجاوز ألف صعوبة اعترضت طريقه ، إلى أن اكتشف أخيراً السقيفة الغامضة ودخل إليها ، مواجهاً ظلمة مخيفة أكثر من ظلمة أرشيف الموتى . من استطاع تجاوز كل تلك المشقات لا يحق له الآن أن يفقد الهمة أمام الجهد الذي تتطلبه مسيرة ، مهما كانت طويلة ، خصوصاً وأنها تجري تحت نور الشمس الصريح ، وهو كما نعرف ،صديق للأبطال . وإذا ما أدركته ظلال الغسق قبل أن يصل إلى قبر المرأة المجهولة ، وإذا ما جاء الليل ليقطع عليه الدروب ، ويبث فيها مُفزعاته غير المرئية ، مانعاً إياه من مواصلة التقدم ، فيمكنه أن ينتظر ميلاد اليوم الجديد مستلقياً على أحد هذه الأحجار المغطاة بالطحالب ، في كنف تمثال ملاك حجري كئيب يحرس أحلامه . وفكر دون جوزيه ، أو النوم تحت

قنطرة إسناد مثل تلك التي هناك ، ولكنه تذكر بعد ذلك أنه لن يجد بعد قليل مزيداً من تلك القناطر . وبفضل الأجيال القادمة والتطور اللاحق للعمارة المدنية ، سيبدأ عما قريب ابتكار طرق أقل كلفة لإسناد جدار وإبقائه منتصباً ، والمقابر هي ، عملياً ، المكان الذي تتبدى فيه أكثر من سواه منجزات التقدم لعيون الدارسين أو الفضوليين العاديين ، بل وهناك من يؤكد أن مقبرة مثل هذه هي أشبه بمكتبة ، حيث يحل أشخاص مدفونون محل الكتب ، والحقيقة أنه لا فرق ، إذ يمكن التعلم منهم بقدر ما يمكن التعلم منها . نظر دون جوزيه إلى الوراء ، لم يكن بإمكانه ، من المكان الذي هو فيه ، أن يصل ببصره ، من فوق النصب الجنائزية المرتفعة ، إلى ما هو أبعد من الرسم النائي لسطح مبنى الإدارة ، فغمغم ، لم أكن أتصور أنني ابتعدت إلى هذا الحد ، وبعد أن أبدى هذه الملاحظة ، وكما لو أنه كان ينتظر سماع صوته فقط ، لكي يتخذ قراراً ، أعاد وضع قدميه على الطريق .

عندما وصل أخيراً إلى قسم المنتحرين ، وكانت السماء ما تزال تغربل رماد الغسق الذي ما زال أبيض اللون ، فكر في أنه أخطأ في التوجه ، أو أن رسم الخريطة سيئ . فقد وجد أمامه امتداداً ريفياً فسيحاً ، فيه الكثير من الأشجار ، تكاد تشكل غابة ، حيث القبور ، لولا بعض أحجار الضرائح الظاهرة ، لبدت أكثر شبهاً بالآجام النباتية الطبيعية . لم يكن بالإمكان رؤية الجدول من هنا ، ولكن الخرير الخافت لانزلاق الماء على الصخور كان مسموعاً ، وكانت تطفو في الجو ، الذي مثل زجاج أخضر ، برودة ليس سببها أولى ساعات الغروب فقط . وبما أن قبر المرأة المجهولة حديث لم تمض عليه سوى أيام قليلة ، فلا بد أن يكون في الطرف الخارجي للحيز المشغول بالقبور ، والمسألة الآن في معرفة في أي اتجاه هو . فكر دون جوزيه بأن أفضل ما يمكنه عمله ، حتى لا يضيع ، هو أن ينحرف باتجاه ضفة مجرى الماء الصغير والسير بعد ذلك على امتداد

الضفة إلى أن يجد آخر القبور . سرعان ما غطته ظلال الأشجار ، كما لو أن الليل قد خيم فجأة . فتمتم دون جوزيه ، يجب أن أشعر بالخوف ، وسط هذا الصمت ، وبين هذه القبور ، ومع هذه الأشجار التي تحيط بي ، ولكنني بالرغم من كل ذلك أشعر بالطمأنينة وكأنني في بيتي ،ساقاي وحدهما تؤلمانني من كثرة المسير ، ها هو ذا الجدول ، ولو أنني أشعر بالخوف لاستطعت الذهاب من هنا في هذه اللحظة بالذات ، يكفي أن أجتازه ، ولن يكون علي سوى أن أخلع حذائي ، وأشمر بنطالي ، وأعلق الحذاء برقبتي وأعبر ، ولن يصل الماء إلى ركبتيّ ،وخلال وقت قصير سأكون مع أناس أحياء ، بين تلك الأنوار التي أضيئت للتو .بعد نصف ساعة من ذلك ، وصل دون جوزيه إلى أقصى الحقل ، عندما كان القمر، المكتمل تقريباً ،وشبه المستدير ، يصعد من الأفق . القبور هنا ما زالت دون أحجار كبيرة نُقشت عليها الأسماء ودون زينات زخرفية ، ولا يمكن تمييزها إلا من خلال الأرقام البيضاء المكتوبة على لوحات سوداء مغروسة عند موقع الرأس ، مثل فراشات مثبتة بدبابيس . كان ضوء القمر ينسكب رويداً رويداً على الحقل ، متسللاً ببطء بين الأشجار مثل شبح مألوف وخيِّر . في فسحة خلاء ،عثر دون جوزيه على ما كان يبحث عنه . لم يُخرج من جيبه الورقة التي أعطاه إياها كاتب المقبرة ، ولم يبذل أي جهد ليحفظ الرقم في رأسه ، ولكنه عرفه عندما احتاج إليه ، وها هو ذا الآن أمامه ،مشعاً بالكامل ، كما لو أنه قد طلي بصباغ فسفوري .

قال ، إنها هنا .





عـاني دون جوزيه من البـرد طوال الليل . فـبـعـد أن تلفـظ بالكلمـتين الحـاسمـتين وغـير المجـديتين ، إنهـا هنا ، لم يعـد يعـرف ما الـذي يمكنه أن يفعله . صحيح أنـه توصل أخيراً ، بعد جهود طويلة ومضنية ، إلى العثور على المرأة ، أو بكلمـة أدق ، على المكان الذي ترقد فيـه ، على عـمق سـبعـة أشبـار معدودة عن سـطح الأرض التي مـا زالت تحمله فوقـهـا ، أمـا في أعـمـاقـهـا ، وفكر بـأن الأمـر الـطبـيـعي هـو أن يتـملكه الخـوف ، أن ترتـعـد فـرائصـه من المكان ، من الـوقت ، من حـفـيف الأشجـار ، من ضـوء الـقـمـر الغـامض ، ومن المقبرة التي تحيط به على وجه الخصوص ، فهناك جمعية عمومية للمنتحرين ، مجلس للصمت يمكن له بين لحظة وأخرى أن يبدأ بالصراخ ، لقد جئنا إلى هنا قـبـل أن ينتـهي أجلنا ، جـاءت بـنا إرادتنا ، ولـكن مـا كـان يجـول في أعـماقه بدا أقرب بكثير إلى التردد ، إلى الشك ، كما لو أن بحثه لم ينته بعد ، بينما هو يعتقد بأنه قد بلغ النهاية ، وكما لو أن مجيئه إلى هنا لا يمثل إلا خطوة أخرى ، لا تزيد أهمية عن ذهابه إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، أو المدرسة ، أو الصيدلية التي وجه الاستفسارات فيها ، أو الأرشيف الذي تُحـفظ فيـه ، هناك في المحفـوظات ، أوراق الموتى ، وكـان الانطباع شديداً إلى حد غمغم معه ، وكـأنه يحاول إقناع نفسـه ، إنها ميتة ، ولم يعد بـاستطاعتي عـمل أي شيء آخر ، لأنه لا يمكن عـمل أي شيء في

مواجهة الموت . كان قد مشى لساعات عبر المقبرة العامة ،مرّ عبر أزمنة ، عبر عصور وسلالات ، عبر ممالك ، وإمبراطوريات وجمهوريات ، عبر حروب وأوبئة ، عبر مِيتات يومية لا متناهية ، بدءاً من أول ألم بشري وانتهاء بهذه المرأة التي انتحرت منذ أيام قليلة ، ولهذا كان دون جوزيه يعرف أنه لا يمكن عمل شيء في مواجهة الموت . خلال الدرب المشكّل من كل تلك الأعداد من الموتى ، لم ينهض أي واحد منهم على وقع خطواته ، ولم يتوسل إليه أي واحد ليساعده في جمع غبار اللحم المنثور إلى العظم المتحلل ، ولم يطلب أحد منه ، تعال وانفخ في عينيّ نَفَس الحياة ، فهم يعرفون جيداً أنه لا يمكن عمل شيء في مواجهة الموت ، هم يعرفون ذلك ، جميعهم يعرفونه ، وما دام الأمر كذلك ، من أين يأتي إذن هذا الغم الذي يُطبق على خناق دون جوزيه ، من أين يأتيه انقباض الروح هذا ، كما لو أنه ترك ، بنذالة ، عملاً في منتصفه ولم يعد يعرف كيف يعود ليُكمله بكرامة . في الجانب الآخر من الجدول ، غير بعيد جداً ،تبدو بعض البيوت بنوافذها المضاءة ، ومصابيح الإنارة العامة في الضاحية بأضوائها الذاوية ، وومضة عابرة من السيارة التي تجتاز الطريق العام . وفي مواجهته ، على بعد أقل من ثلاثين خطوة ، مثلما يجب أن يكون على هذا البعد أو ذاك ، هناك جسر صغير يصل بين ضفتي الجدول ، وليس على دون جوزيه بالتالي أن يخلع الحذاء ، ولا أن يشمر بنطاله من أجل الوصول إلى الضفة الأخرى .لو كان في ظروف عادية لفعل ذلك ، وخصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار أننا لا نعرفه كشخص مفرط في الشجاعة ، وهي الصفة التي يحتاج إليها للبقاء دون مبالاة في مقبرة طوال الليل ، مع وجود ميت تحت قدميه ، وقمر لا يتورع عن جعل الظلال تمشي . ولكن الظروف على كل حال هي هذه وليس غيرها ، فالأمر هنا لا يتعلق بالشجاعة أو الجبن ، وإنما بالموت والحياة ، ولهذا فإن دون جوزيه ، مع معرفته بأنه سيشعر بالخوف مرات كثيرة هذه الليلة ، ومع معرفته بأن تنهدات الريح ستبث الرعب في قلبه ، وأن البرد الذي يهبط

من السماء عند الفجر سيلتقي بالبرد الذي يصعد من الأرض ، سيجلس دون جوزيه تحت شجرة ، متكوراً على نفسه في الفجوة التي هيأتها العناية الإلهية في جذع شجرة . إنه يرفع ياقة سترته ، يتكور بأقصى ما يستطيع ليحتفظ بحرارة جسمه ، يقاطع ذراعيه مخبئاً يديه تحت إبطيه ويستعد لانتظار طلوع النهار . يشعر بمعدته تطالبه بالطعام ، ولكنه لا يأبه ، فليس هناك من مات لأنه أطال الفترة بين وجبتين ، اللهم إلا إذا تأخر تقديم الثانية طويلاً وفات موعد تقديمها إلى الأبد . دون جوزيه يريد أن يعرف إذا ما كان كل شيء قد انتهى حقاً ، أم أن الأمر خلاف ذلك ، وأنه ما زال ثمة شيء نسيه ، أو شيء ، وهذا أهم ، لم يخطر له قط ، ويكون هذا الشيء ، أخيراً ، هو جوهر هذه المغامرة الغريبة التي طلع بها القدر عليه . لقد بحث عن المرأة المجهولة في كل مكان وانتهى به الأمر إلى العثور عليها هنا ، تحت جثوة التراب تلك التي لن تتأخر الأعشاب البرية طويلاً في تغطيتها ، ما لم يأت قبل ذلك نحات الرخام ليسوى التراب ويركّب فوقه اللوحة الرخامية وقد كُتب عليها التاريخان المعهودان ، الأول والأخير ، والاسم ، وقد يكون الأهل ممن يفضلون لموتاهم إطاراً مستطيلاً بسيطاً يزرعون بعد ذلك في داخله عشباً تزيينياً ، وهذا حلّ يوفر فائدة مزدوجة بكونه أرخص كلفة وبتأمينه مأوى لحشرات سطح الأرض . ولكن المرأة موجودة هناك ، لقد سُدت أمامها كل دروب العالم ، مشت ما كان عليها أن تمشيه، وتوقفت حيث شاءت هي نفسها ، نقطة وانتهى . لم يستطع دون جوزيه مع ذلك التخلص من فكرة ثابتة ، فكرة أنه ما من أحد ، اللهم إلا هو نفسه، قادر على تحريك الحجر الأخير المتبقي على الرقعة ، الحجر الحاسم ، ذاك الذي سيعطى ، إذا ما حُرك في الاتجاه الصحيح ، معنى حقيقياً للعبة ، تحت طائلة تعرضه ، إذا لم يحدث ذلك ، للبقاء متعادلاً حتى الأبدية . إنه لا يعرف ما هي تلك النقلة السحرية ، وإذا كان قد قرر قضاء الليل هنا فليس لأنه يأمل بأن الصمت سيبوح له في أذنه بالسر ولا لأن نور القمر سيرسمه له

بلطف بين ظلال الأشجار ، إنه مثل شخص صعد جبلاً ليشاهد المناظر الطبيعية من هناك ، ورفض العودة إلى الوادي طالما لم يشعر بأن عينيه المبهورتين ما عادتا تتسعان للمزيد .

الشجرة التي اختارها دون جوزيه هي زيتونة هرمة ،ما زال أناس الضاحية يلتقطون ثمارها على الرغم من تحول حقل الزيتون إلى مقبرة . ومع تقدم الشجرة في عمرها المديد ، راح جذعها ينفتح في إحدى جهاته ، من أعلى إلى أسفل ، مثل مهد وُضع بصورة عمودية ليشغل حيزاً أصغر ، وهناك راح دون جوزيه يغفو بين وقت وآخر ، وهناك كان يستيقظ فجأة مذعوراً من صفعة ريح لطمت وجهه ، أو إذا ما صار الصمت وسكون الهواء عميقين إلى حد تبدأ معه الروح الهائمة بين النوم واليقظة بالحلم بصرخات عالم ينزلق نحو العدم . وعند حدّ معين ، مثل من يقرر أن يُنظف لطخةً أحدثتها حبةُ توت بحبةٍ أخرى من التوت ، قرر دون جوزيه اللجوء إلى الفنتازية لكي يستعيد في ذهنه كل الأهوال التقليدية للمكان الذي هو فيه ،مواكب الأرواح المحزونة الملفوفة بملاءات بيضاء ، رقصات الموت التي ترقصها هياكل عظمية تطقطق عظامها مع الإيقاع ، شخصية الموت البغيضة وهي تحصد الأرض بمنجلها الكبير الدامي حتى يستسلم الميتون قانعين ببقائهم ميتين ، ولكن ، لأن شيئاً من ذلك كله لم يكن يحدث في الواقع ، ولأنها مجرد تخيلات ، راح دون جوزيه يهوي ، شيئاً فشيئاً ، في سلام داخلي هائل ، لا يعكره أحياناً إلا الجري غير المسؤول للنيران الكاذبة التي يمكن لها أن توصل إلى حافة الانهيار العصبي كل شخص ،مهما كانت قوة معنوياته ومهما كانت معارفه في المبادئ الأولية للكيمياء العضوية .وكون دون جوزيه الرعديد يبدي هنا شجاعة لم نكن نتوقعها منه بعد أن رأينا الكثير من تردده وكروبه ، يُثبت ، مرة أخرى ، أن الروح تُظهر كل عظمتها الحقيقة في الملمات الكبرى .ومع اقتراب الفجر ،حين كان قد شفي تقريباً من المخاوف ، وأنعشه دفء الشجرة التي تحتضنه ،غرق دون جوزيه في النوم

بهدوء واضح ، بينما كان العالم من حوله قد بدأ يخرج ، ببطء ، من ظلال الليل الخبيثة ومن أضواء القمر الغامضة التي بدأت تودع . وعندما فتح دون جوزيه عينيه ، كان الضياء قد بزغ . كانت فرائصه ترتعد من البرد ، ويبدو أن الحضن النباتي الودود لم يكن سوى حلم آخر ،اللهم إلا إذا كانت الشجرة قد رأت أنها أنجزت واجب الضيافة المفروض على كل أشجار الزيتون ، بحكم طبيعتها ، أن تقدمه ،فأفلتته منها قبل الأوان وتركته مهجوراً دون ملاذ لبرودة الضباب الخفيف الذي يطفو ،على مستوى الأرض ، فوق المقبرة . نهض دون جوزيه بمشقة وهو يشعر بكل مفاصل جسده تطقطق ، وتقدم متعثراً يطلب الشمس ، في الوقت الذي كان يهز فيه ذراعيه ليدفئ جسده . إلى جانب قبر المرأة المجهولة ، كانت هناك نعجة بيضاء تقضم العشب الرطب ، وفي ما حولها ، هنا وهناك ، كانت نعاج أخرى ترعى . وكان هناك رجل مسن ، يحمل في يده عصا رعاة ، ويتقدم باتجاه دون جوزيه . يرافقه كلب عادي ، غير كبير ولا صغير ، لا تبدو عليه سمات العدوانية ، بالرغم من أن كل ما فيه يشير إلى أنه ينتظر أمراً من صاحبه ليكشف عن حقيقة طباعه . توقف الرجل في الجانب الآخر من القبر بالملامح المؤكدة لمن يرى ، دون أن يطلب تفسيرات ، بأن الآخرين مجبرون على تقديمها إليه ، قال دون جوزيه ، صباح الخير ، فردّ عليه الآخر ، صباح الخير ، صباح جميل ، ليس بالسيئ ، فقال دون جوزيه ، لقد غفوتُ، وكرر الرجل بنبرة متشككة ، آه ، غفوت ، جئتُ هنا لزيارة قبر شخص عزيز ، وجلست لأستريح تحت شجرة الزيتون تلك ،فغلبني النعاس ، أمضيتَ الليل هنا ، أجل ، إنها المرة الأولى التي ألتقي فيها بأحد في مثل هذه الوقت ، عندما أجيء بالأغنام لترعى ،فسأله دون جوزيه ، ولا تأتي خلال بقية النهار ، سيبدو ذلك سيئاً ، سيكون نوعاً من إساءة الاحترام أن تتوغل الأغنام بين المدافن أو تفلت البعر بين الناس الآتين لتذكر أحبائهم وهم يتلون الصلوات ويبكون ، علاوة على أن المرشدين لا يريدون أن تزعجهم

النعاج بينما هم يحفرون القبور ، ولهذا لا أجد بداً من إحضار بعض الجبن لهم من حين لآخر حتى لا يحتجون لدى القَيِّم ،مادامت المقبرة العامة ميداناً مفتوحاً من كل الجهات ، فإنه يمكن لأي شخص الدخول إليها ، ومن يقول كل شخص ، يمكنه أن يقول كل دابة ، وأنا أستغرب أنني لم أر أي كلب أو قط من مبنى الإدارة حتى هنا ، الكلاب والقطط الضالة ليست قليلة هنا ، ولكنني لم أر أي واحد منها ، وهل قطعت كل هذه الكيلومترات على قدميك ، أجل ، كان بإمكانك المجيء بالحافلة العامة ، أو بسيارة أجرة ، أو بسيارتك إذا كنت تملك واحدة ، لم أكن أعرف مكان القبر ، ولهذا اضطررت إلى الاستعلام أولاً في الإدارة ، وبعد ذلك قررت المجيء مشياً لأن النهار كان رائعاً ، يبدو لي غريباً أنهم لم يطلبوا مني الالتفاف من الخارج ، مثلما يفعلون دائماً ، طلبتُ منهم أن يسمحوا لي بالمرور ، فسمحوا لي بذلك ، هل أنت عالم آثار ، لا ، مؤرخ ، ولا هذا ، ناقد فني ، ولا بأي حال ، باحث في شعارات النبلاء ، أرجوك ، هذا ما ينقصني ،لستُ أفهم إذن لماذا أردتَ أن تمشي كل هذه المسافة ، ولا كيف استطعت النوم وسط القبور ،فأنا المعتاد على هذا المشهد ، لن أبقى دقيقة واحدة هنا بعد غياب الشمس ، كما ترى ، جلستُ لأستريح وغلبني النوم ، أنت رجل جسور ، لستُ رجلاً جسوراً، وهل وجدتَ الشخص الذي جئت بحثاً عنه ، إنه هذا الذي هنا ، عند قدميك ، أهو رجل أم امرأة ، بل امرأة ، مازالت دون اسم ، أعتقد أن الأسرة تعمل على إعداد اللوحة الحجرية ، لقد لاحظتُ أن ذوي المنتحرين أقل اهتماماً من الآخرين بهذا الواجب الأولي ، ربما يشعرون بتأنيب الضمير ، لا بد أنهم يشعرون بأنهم مذنبون . هذا محتمل ، إذا كنا لم نتعارف في أي مكان من قبل ، فلماذا تردّ على كل أسئلتي ، التصرف الطبيعي هو أن تقول لي إنه يجب علي ألا أتدخل في حياتك ، هذه هي طريقتي في التعامل ، أجيب عن كل ما يسألونني عنه ، هل أنت مرؤوس ، تابع ، مستخدم ، نادل ، مراسل ، أنا كاتب في المحفوظات العامة للسجل المدني ،لقد جئتَ إذن لتعرف

الحقيقة حول موقع المنتحرين ، ولكن قبل أن أخبرك بذلك ، عليك أن تقسم لي بوقار بأنك لن تكشف السر لأحد ، أقسم لك بأقدس ما لدي في الحياة ، وما هو أقدس ما لديك في الحياة ، لستُ أدري ، كل شيء ، أو لا شيء ، عليك أن تعترف بأنه قسم غامض ، ليس لدي ما هو أكثر قيمة منه ، يا رجل ، احلف بشرفك ، فقد كان هذا القسم هو الأكثر ضماناً في ما مضى ، مثلما تريد ، أُقسمُ بشرفي ، ولكن عليك أن تعرف بأن رئيس المحفوظات سينفجر في الضحك إذا ما سمع أن أحد كتبته قد أقسم بشرفه ، ولكنه قسم جدي بما يكفي بين راعي أغنام وكاتب ، قسم لا يدعو إلى الضحك ، ولهذا سنلتزم به ، فسأله دون جوزيه ، وما هي حقيقة موقع المنتحرين ، الحقيقة هي أن هذا المكان ليس مثلما يبدو لنا ، إنه مقبرة ، المقبرة العامة ، بل هو متاهة ، المتاهات يمكن رؤيتها من الخارج ، ليس كلها ، وهذه تنتمي إلى النوع غير المرئي ، لستُ أفهم ، فقال الراعي وهو يلمس بطرف عصاه جثوة التراب ، الشخص الذي هنا على سبيل المثال ، ليس الشخص الذي تظنه . وفجأة ، مادت الأرض تحت قدمي دون جوزيه ، فالحجر الأخير على الرقعة ، يقينه الأخير ، المرأة المجهولة التي عثر عليها أخيراً ، اختفت كلها ، فسأل وهو يرتجف ، هل تعني أن هذا الرقم خاطئ ، فقال الراعي ، الرقم هو رقم ، والرقم لا يخدع أبداً ، فإذا ما رفعوا هذا الرقم من هنا ووضعوه في مكان آخر ، حتى لو كان في آخر العالم ، فسوف يبقى الرقم نفسه ، لستُ أفهمك ، سوف تفهم ، أرجوك ، رأسي مشوش ، ليس بين كل هذه الأجساد المدفونة هنا جسد واحد يتطابق مع الاسم المكتوب على لوحات الرخام ، لا أصدق ذلك ، أنا أقوله لك ، وماذا عن الأرقام ، كلها مستبدلة ، لماذا ، لأن هناك من يبدلها قبل أن يأتوا بالأحجار التي تحمل الأسماء ويثبتوها عليها ، ومن الذي يفعل ذلك ، أنا ، فاحتج دون جوزيه ساخطاً ، ولكن هذا العمل جريمة ، ليس هناك قانون ينص على ذلك ، سوف أشكوك الآن فوراً لإدارة المقبرة ، تذكر أنك أقسمت ، إنني أسحب قسمي ، فهو بلا قيمة في مثل

هذه الحالة ، يمكنك دائماً أن تضع الكلمة الطيبة فوق الكلمة الخبيثة ، ولكن ليس بالإمكان سحب هذه ولا تلك ، الكلمة هي الكلمة ، والقسم هو القسم ، للموت قدسيته ، القدسية هي للحياة أيها السيد الكاتب ، أو هذا هو ما يقال على الأقل ، ولكن لا بد أن يكون هناك ، باسم الوقار ، حدّ أدنى من الاحترام للموتى ، فالناس يأتون هنا لتذكر أقربائهم وأصدقائهم ، ليتأملوا أو ليتلوا الصلوات ، ليضعوا أزهاراً أو ليبكوا أمام اسم عزيز ، وها أنت ترى أنه بسبب خبث راعي أغنام ، يكون اسم المدفون الحقيقي مختلفاً ، والرفات الموقر ليس للشخص المفترض ، ويتحول الموت هكذا إلى مهزلة ، لا أظن أن هناك احتراماً أكبر من البكاء على شخص لا نعرفه ، ولكن الموت ، ملاذا ، يجب احترام الموت ، أحبُ أن أعرف ما الذي يعنيه ، في رأيك ، وجوب احترام الموت ، عدم انتهاك حرمته قبل كل شيء ، أنت تدرك جيداً أنني أتكلم عن الموتى وليس عن الموت بحد ذاته ، قل لي أين تجد هنا أدنى إشارة إلى التدنيس ، تلاعبك بأسمائهم ليس بالتدنيس الضئيل ، أتفَهَّمُ أن تكون لدى كاتب في محفوظات السجل المدني مثل هذه الأفكار عن الأسماء ، قطع الراعي كلامه ، وأومأ إلى الكلب ليذهب في إثر نعجة ضالة ، ثم تابع قائلاً ، لم أخبرك بعد بالسبب الذي بدأتُ من أجله استبدال اللوحات التي كُتبت عليها أرقام القبور ، أشكُ في أن معرفة ذلك تهمني ، وأنا أشك في أنه لا يهمك ، هيا أخبرني ، إذا كان صحيحاً ، مثلما هي قناعتي ، أن الناس ينتحرون كي لا يُعثر عليهم ، فإن هؤلاء الذين هنا ، وبفضل خبث راعي أغنام كما قلت حضرتك ، صاروا بمنجى من كل التدخلات ، والحقيقة أنه لن يكون بإمكاني أنا نفسي ، حتى لو رغبتُ في ذلك ، أن أتذكر أماكنهم الصحيحة ، ما أعرفه فقط هو ما أفكر به عندما أمر أمام أحد هذه الألواح الحجرية التي تحمل الاسم الكامل وتاريخي الميلاد والوفاة ، وبماذا تفكر ، بأنه من غير الممكن رؤية الأكذوبة حتى ونحن نراها أمام عيوننا . كان قد انقضى وقت طويل على اختفاء الضباب ، وصار

بالإمكان الآن رؤية كِبَر حجم القطيع . أومأ الراعي بحركة بالعصا فوق رأسه ، وكانت تلك الحركة أمراً إلى الكلب ليجمع الماشية . وقال الراعي ، لقد حان وقت ذهابي مع النعاج ، ليس لأن المرشدين بدؤوا بالمجيء ، فأنا أرى أضواء سياراتهم ، ولكنهم لا يأتون إلى هنا ، فقال دون جوزيه ، أما أنا فسأبقى ، وسأله الراعي ، هل تفكر حقاً في الإبلاغ عني ، أنا رجل يحافظ على كلمته ، وما أقسمت عليه قد أقسمت عليه ، ومن المؤكد أنهم سوف ينصحونك بالتزام الصمت أيضاً ، لماذا ، تصور الجهد الذي سيتطلبه نبش قبور كل هؤلاء الأشخاص ، والتعرف عليهم ، مع أن كثيرين منهم لم يعودوا سوى تراب بين التراب . كانت الأغنام قد تجمعت ، وكانت إحداها ، وقد تلكأت قليلاً ، تقفز برشاقة فوق القبور هرباً من الكلب لتنضم إلى أخواتها . سأله الراعي ، هل كنتَ صديقاً أو قريباً لمن جئت لتزورها ، بل إنني لم أكن أعرفها ، وأنت تبحث عنها مع ذلك ، كنتُ أبحث عنها لأني لا أعرفها ، أرأيتَ كيف أنني كنتُ على حق عندما قلت لكَ إنه ليس هناك احترام أكبر من البكاء على شخص لم نتعرف عليه ، مع السلامة ، ربما سيتاح لنا أن نلتقي مرة أخرى ، لا أظن ذلك ، ومن يدري ، من تكون حضرتك ، أنا راعي هذه الأغنام ، ولا شيء سوى ذلك ، لا شيء سوى ذلك . تلألأ ضوء من بعيد ، فقال دون جوزيه ، ذاك آتٍ إلى هنا ، وقال الراعي ، هكذا يبدو . بدأ القطيع يتحرك ، والكلب في المقدمة ، باتجاه الجسر . وقبل أن يختفي وراء أشجار الضفة الأخرى ، التفت الراعي وأومأ مودعاً . فرفع دون جوزيه ذراعه أيضاً . صار بالإمكان الآن رؤية ضوء سيارة المرشدين المتقطع بوضوح أكبر . إنه يختفي بين حين وآخر ، متوارياً بتضاريس الأرض ، أو بين أبنية المقبرة غير المنتظمة ، الأبراج ، المسلات ، الأهرامات ، ثم يعود للظهور أقوى وأقرب من السابق ، إنه يأتي مسرعاً ، وهي إشارة واضحة إلى أن الموكب المرافق ليس كبيراً . لقد كانت نية دون جوزيه ، عندما قال للراعي ، أنا سأبقى ، هي البقاء وحيداً بضع دقائق أخرى قبل أن يبدأ السير من جديد .

الشيء الوحيد الذي يريده هو التفكير قليلاً بنفسه ، والعثور على المقاس الدقيق لخيبة أمله ، وتقبله ، وإحلال السلام في روحه ، والقول دفعة واحدة ، لقد انتهى الأمر ، ولكن فكرة جديدة خطرت له الآن . دنا من أحد القبور واتخذ هيئة من هو غارق في تأمل عميق في تقلبات الوجود ، وفي عبثية كل الأحلام وكل الآمال ، وفي الهشاشة المطلقة للأمجاد الدنيوية والإلهية . كان يتأمل بتركيز شديد لم يبد معه أنه انتبه إلى وصول المرشدين والأشخاص الستة ، أو أقل ، الذين يرافقون النعش . ولم يتحرك خلال الوقت الذي استمره فتح الحفرة ، وإنزال النعش ، وملء الفجوة ، وتشكيل الجثوة المعهودة بما تبقى من تراب . ولم يتحرك عندما غرس أحد المرشدين فوق موضع الرأس لوحة معدنية سوداء عليها رقم القبر بالأبيض . ولم يتحرك عندما انصرفت سيارة المرشدين والسيارة الجنائزية ، ولم يتحرك خلال الدقيقتين القصيرتين اللتين بقي أثناءهما المرافقون واقفين عند القبر يقولون كلمات غير مجدية ويمسحون دمعة ما ، لم يتحرك عندما أدارت السيارتان اللتان أحضرتاهم محركيهما واجتازتا الجسر . لم يتحرك إلى أن بقي وحيداً .عندئذ نزع الرقم الذي على قبر المرأة المجهولة ووضعه على القبر الجديد . ثم نقل رقم هذا ليحتل مكان الآخر .لقد تمت المبادلة ، وتحولت الحقيقة إلى كذبة . والاحتمال الأكبر على أي حال ، هو أن يجد الراعي في الغد قبراً جديداً ،فينقل ، دون أن يدري ، الرقم المزيف إلى قبر المرأة المجهولة ، إنه احتمال ساخر حيث تكرر الكذبة نفسها ، فتتحول إلى حقيقة . إمكانيات المصادفة لا نهائية . انطلق دون جوزيه إلى بيته . وفي الطريق ، دخل إلى محل حلويات . تناول قهوة مع الحليب وقطعة خبز محمص . لأنه لم يعد يتحمل مزيداً من الجوع .



قرر دون جوزيه أن يعوض ما فقده من النوم ، فاندس في الفراش فور دخوله إلى البيت ، ولكن لم تكن قد انقضت ساعتان حين استيقظ من جديد . لقد رأى حلماً غريباً ، غامضاً ، رأى نفسه وسط المقبرة ، بين حشد من الأغنام ، أعداد كبيرة من الأغنام تكاد لا تسمح بتمييز جثوات القبور ، وعلى رأس كل واحدة منها رقم يتنقل باستمرار ، بل إنه لم يكن قادراً ، لشدة تشابهها ، أن يعرف إذا ما كانت الأغنام هي التي تتبادل الأرقام أم أن الأرقام هي التي تتبادل الأغنام . وكان يُسمع صوت صارخ ، إنني هنا ، إنني هنا ، لا يمكن أن يكون صادراً عن الأغنام لأنها فقدت القدرة على الكلام منذ زمن بعيد ، ولا يمكن له أن يكون صادراً عن القبور كذلك ، لأن الذاكرة لم تسجل أنها تكلمت في يوم من الأيام ، ومع ذلك ، كان الصوت ينادي بإصرار ، إنني هنا ، إنني هنا ، فينظر دون جوزيه في ذلك الاتجاه ولا يرى سوى مخاطم البهائم المرفوعة ، ثم تدوي الكلمات نفسها وراءه ، إلى يمينه أو إلى يساره ، إنني هنا ، إنني هنا ، فيلتفت بسرعة ، ولكنه لا يتبين من أين تأتي . كان دون جوزيه مغموماً ، يريد الاستيقاظ ولا يتمكن من ذلك ، ويتواصل الحلم ، ويظهر الآن الراعي وكلبه ،فيفكر دون جوزيه ، ليس هناك ما لا يعرفه هذا الراعي ، وسيخبرني الآن من هو صاحب هذا الصوت ، ولكن الراعي لم يتكلم ، واكتفى بتحريك العصا فوق رأسه ، فدار الكلب حول النعاج ، مجبراً إياها على التحرك

باتجاه جسر كانت تمر عليه بصمت سيارات ذات لوحات مضيئة تشتعل وتنطفئ قائلة اتبعني ، اتبعني ، اتبعني ، وفي لحظة اختفى القطيع ، واختفى الكلب ، واختفى الراعي ، ولم يبق سوى أرض المقبرة مغطاة بأرقام ، الأرقام نفسها التي كانت على رؤوس الأغنام من قبل ، ولكن ، لأنها كانت جميعها الآن معاً ، جميعها متلاصقة من أطرافها ، في حلزون غير منقطع هو نفسه مركزه ، لم يعد بالإمكان تمييز أين يبدأ أحدها وأين ينتهي الآخر . استيقظ دون جوزيه مغموماً يغطيه العرق وهو يقول ، إنني هنا . كانت جفونه مغمضة ، وكان شبه واع ، ولكنه كرر مرتين أخريين بقوة ، إنني هنا ، إني هنا ، ثم فتح عينيه بعد ذلك على الحيز البائس الذي يعيش فيه منذ سنوات طويلة ، رأى السقف المنخفض ذا الملاط المشقق ، والأرضية بأخشابها الملتوية والمحدبة ، والمنضدة والكرسيين في وسط الصالة ، إذا كان لهذا الاسم من معنى في مثل هذا المكان ، والخزانة التي يخبئ فيها أخبار وصور المشهورين ، والركن المؤدي إلى المطبخ ، والركن الذي يستخدمه كحمام ، وعندئذ قال ، عليّ أن أجد طريقة للخلاص من هذا الجنون ، وكان يعني بذلك ، بكل وضوح ، المرأة التي صارت الآن مجهولة إلى الأبد ، أما البيت ، ويا له من مسكين ، فليس له أي ذنب ، لأنه بيت كئيب وحسب . وخوفاً من أن يتكرر الحلم ، لم يحاول دون جوزيه العودة إلى النوم من جديد . كان مستلقياً على ظهره ، ينظر إلى السقف ، منتظراً منه أن يسأله ، لماذا تنظر إليّ ، ولكن السقف لم يأبه به ، واقتصر على مراقبته دون أن يبدل ملامحه . تخلى دون جوزيه عن انتظار أن يهب السقف لمساعدته ، لأن عليه أن يحل المشكلة وحده ، والطريقة المثلى ما زالت في إقناع نفسه بأنه ليس هناك أي مشكلة ، بموت الكلب انتهى السعار ، كان هذا المثل الذي ينم عن قلة احترام هو ما خرج من فمه ، وصف المرأة المجهولة بالكلب المسعور ، متجاهلاً للحظة أن هناك سموماً بطيئة جداً ما إن يحين موعد مفعولها حتى نكون قد نسينا أصلها . ولكنه انتبه على الفور ، وغمغم ، حذار ، فالموت في أحيان كثيرة هو سم بطيء ، ثم تساءل بعد ذلك ،

متى ولماذا بدأت هي بالموت . عندئذ خرج السقف عن لامبالاته ، ودون أن يبدو أن هناك علاقة مباشرة أو غير مباشرة بما سمعه ،قال متذكراً ،مازال هناك ثلاثة أشخاص على الأقل لم تكلمهم ،فسأله دون جوزيه ، ومن هم ، إنهم الأبوان والزوج السابق ،الحقيقة أن التحدث إلى الأبوين لن يكون بالفكرة السيئة ،لقد فكرتُ في ذلك في البدء ، ولكنني قررت تأجيله إلى مناسبة أخرى ، إما أن تفعل ذلك الآن وإلا فإنك لن تفعله أبداً ،فمازال بإمكانك اللهو بالمضي قليلاً في هذا الطريق ، قبل أن يصطدم وجهك ، نهائياً ، بالجدار ، لولا أنك متشبث بمكانك هنا طوال الوقت ، باعتبارك سقفاً ،لكنتَ عرفت أن الأمر لم يكن لهواً ، وإنما كان تسلية ، وما هو الفرق ، ابحث عنه في المعاجم ،فهذا هو مبرر وجودها ،سألتُ لمجرد السؤال ، فأي شخص يعرف بأن مناورة لهوٍ ليست مناورة تسلية ، وما قولك في الآخر ، من تعنْي بالآخر ، أعني الزوج السابق ، ربما كان القادر على إخبارك بأشياء أكثر من غيره عن امرأتك المجهولة هذه ، يخيل إلي أن حياة المتزوجين ،الحياة المشتركة ،هي أشبه بعدسة مكبرة ، ويخيل إلي أنه لا وجود لتحفظات أو أسرار قادرة على الصمود لوقت طويل أمام مجهر المراقبة المستمرة ، هناك من يقول ، على عكس ذلك ، بأنه كلما ازداد التحديق تضاءلت الرؤية ، ومهما يكن من أمر ، لا أظن أن التحدث إلى ذلك الرجل يستحق العناء ، إنك تخشى أن يبدأ في عرض أسباب الطلاق أمامك ،فأنت لا تريد سماع شيء ينال منها ، الناس عموماً لا يكونون عادلين ، سواء مع أنفسهم أو مع الآخرين ، وبالتالي سوف يروي لي القضية محاولاً أن يعطي نفسه كل الحق ، تحليل ذكي ،. أجل يا سيدي ، لستُ بالأبله ، صحيح ، لستَ أبله ، كل ما هنالك أنك تحتاج إلى وقت طويل من أجل فهم الأشياء ، وخصوصاً أشدها بساطة ، مثل ماذا ، لم يكن لديك أي مبرر للبحث عن هذه المرأة ، إلا إذا ، إلا إذا ، ماذا ، إلا إذا كان هناك حب ، لابد من أن تكون سقفاً حتى تخطر لك مثل هذه الفكرة السخيفة ، أظن أنني قلت لك ذات مرة بأن سقوف المنازل هي عين السماء المتعددة ، لا

أذكر ذلك ، إذا كنتُ لم أقله بهذه الكلمات تحديداً ، فإنني أقوله لك الآن ، قل لي إذن كيف يمكنني أن أحب امرأة لم أعرفها ، ولم أرها قط ، إنه سؤال وجيه دون شك ، ولكنك أنت وحدك من تستطيع الإجابة عنه ، هذه فكرة ليس لها أساس ولا رأس ، لا أهمية لأن يكون لها رأس أو أساس ،فأنا أحدثك عن جزء آخر من الجسم ، عن القلب ، هذا الذي يقولون إنه محرك العواطف ومستقرها ، أكرر أنه لا يمكن لي أن أحب امرأة لا أعرفها ، امرأة لم أرها قط ، اللهم إلا في صورٍ قديمة ، كنتَ تسعى لرؤيتها ، وللتعرف عليها ، وهذا هو الحب سواء وافقت أم لم توافق ، إنها أوهام سقف ، بل هي أوهامك ، أوهام إنسان ، وليست أوهامي ، أنت سقف متعجرف ، تظن أنك تعرف كل شيء عني ، ليس كل شيء ، ولكن لا بد أنني عرفت شيئاً ما بعد كل هذه السنوات الطويلة من الحياة المشتركة ، أراهن على أنه لم يجل في ذهنك قط أننا ، أنا وأنت ، نعيش معاً ، والفرق الوحيد بيننا هو أنك لا توليني اهتمامك إلا عندما تحتاج لنصيحتي وترفع بصرك إلى أعلى ، بينما أنا أنظر إليك طوال الوقت ، عين الرب ، خذ مجازاتي على محمل إذا شئت ، ولكن لا ترددها كما لو كانت لك . وبعد هذا قرر السقف أن يصمت ، فقد أدرك أن أفكار دون جوزيه تتجه نحو الزيارة التي سيقوم بها إلى أبوي المرأة المجهولة ، وهي خطوته الأخيرة قبل أن يصطدم بالجدار ، وهذا أيضاً تعبير مجازي ، لقد وصلتُ إلى النهاية .

غادر دون جوزيه الفراش ، قام بالنظافة الجسدية كما يجب ، أعد شيئاً يأكله ، مستعيداً بذلك حيويته البدنية ، واستعان بالحيوية المعنوية ليتصل هاتفياً بوالدي المرأة المجهولة ، مُظهراً الفتور البيروقراطي الضروري ، لكي يعرف في المقام الأول إذا ما كانا موجودين في المنزل ، ثم ليسألهما إذا كانا يستطيعان ، في هذا اليوم بالذات ، استقبال موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني يحتاج إلى التداول معهما حول قضية لها علاقة بابنتهما المتوفاة . لو كان الأمر متعلقاً بمكالمة أخرى ، لخرج دون جوزيه للتحدث من كابينة الهاتف العامة الموجودة في الجانب الآخر من الشارع ، أما في هذه

الحالة ، فهناك خطر أن يسمع الناس ، حين يصغون بتيقظ ، صوت العملة المعدنية وهي تسقط في حصالة الآلة ، وعندئذ سيحتاج حتى أقل الناس ارتياباً إلى البحث عن تفسير للسبب الذي يدفع موظفاً في المحفوظات العامة إلى الاتصال من كابينة هاتف ، وفي يوم أحد ، للتحدث عن شؤون لها علاقة بالعمل . حلّ هذه المشكلة الصعبة لم يكن بعيداً ، في الظاهر ، عن متناول يد دون جوزيه ، إذ يكفيه أن يدخل خلسة إلى المحفوظات مرة أخرى ، ويستخدم الهاتف الذي على منضدة الرئيس ، ولكن المجازفة في هذا التصرف لن تكون أقل خطورة ، فكشف المكالمات الهاتفية الذي ترسله الشركة كل شهر ويجري تدقيقه ، رقماً فرقماً ، من قبل المدير نفسه ، سيتضمن بالضرورة هذه المكالمة السرية ، ما هذه المكالمة التي أُجريت من هنا في يوم أحد ، هكذا سيسأل المدير نائبيه ، وسيضيف على الفور ، دون انتظار إجابة عادية ، بادرا إلى إجراء تحقيق في الأمر ، هيا . وسيكون حلّ لغز المكالمة السرية من أسهل الأمور في الدنيا ، فهو لن يكلف سوى الاتصال بالرقم المشبوه وسماع المعلومة من هناك ، أجل يا سيدي ، في ذلك اليوم اتصل بنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني ، ولم يتصل فقط ، بل جاء إلى بيتنا ، وكان يريد أن يعرف الأسباب التي دفعت ابنتنا إلى الانتحار ، وزعم بأن ذلك من أجل الإحصاء ، من أجل الإحصاء ، أجل يا سيدي ، من أجل الإحصاء ، هذا ما قاله لنا على الأقل ، حسن ، اسمعيني الآن بانتباه ، قل ما تريد ، من أجل الكشف التام عن هذه القضية لا بد لكِ أنتِ وزوجكِ من أن تتعاونا مع سلطات المحفوظات ، وما هو المطلوب منا ، ستأتيان غداً إلى المحفوظات للتعرف على الموظف الذي زاركما ، سنكون عندكم في الغد ، ستأتي سيارة لإحضاركما . لم تقتصر مخيلة دون جوزيه على خلق هذا الحوار المثير للقلق ، فما أن انتهى من ذلك حتى انتقل إلى التخيل الذهني لما سيحدث لاحقاً ، دخول أبوا المرأة المجهولة إلى المحفوظات والإشارة إليه ، إنه ذاك ، أو بقاؤهما في السيارة التي ستأتي بهما ، ليراقبا دخول الموظفين وليشيرا ، لقد كان ذاك .

وتمتم دون جوزيه بجزع ، إنني ضائع لا محال ، ليس أمامي من مخرج ،بلى ، لديك مخرج ، وهو مخرج مريح ، ونهائي ، إذا ما تخليت عن الذهاب إلى بيت أبوي المرأة المجهولة ، أو ذهبت إليهما دون إشعار مسبق ، أن تذهب وتطرق الباب ببساطة وتقول ، مساء الخير ، أنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني ، أرجو المعذرة لمجيئي وإزعاجكما في يوم الأحد ، ولكن العمل في المحفوظات تراكم إلى حد أننا طبقنا نظام عمل الساعات الإضافية الدائمة ، لأن أناساً كثيرين يولدون ويموتون . سيكون ذلك أكثر التصرفات ذكاء دون ريب ، فهو سيوفر لدون جوزيه أقصى الضمانات الممكنة حول أمنه المستقبلي ، ولكن يبدو أن الساعات الأخيرة التي عاشها ، وتلك المقبرة بأذرعها الأخطبوطية الممتدة ، وليلة القمر القاتم والظلال المتحركة ، والرقصة المتأرجحة للنار الكاذبة ، والراعي المسن والنعاج ، والكلب الصموت ، كما لو أنهم استأصلوا حباله الصوتية ، والقبور بأرقامها المتبدلة ، يبدو أن كل ذلك قد شوش أفكاره ، وهي المتألقة والصافية عموماً بما يكفي للتحكم بحياته ، ولا يمكن أن تكون هناك طريقة أخرى لفهم إصراره على فكرة الاتصال بالهاتف ، وما لا يمكن فهمه أكثر هو أنه يحاول أن يبرر ذلك ، أمام نفسه ، بالحجة الصبيانية بأنه يمكن لمكالمة مسبقة أن تمهد السبيل للحصول على المعلومات . وهو يرى أن لديه صيغة يمكن لها أن تبدد منذ البدء أدنى قدر من الريبة ، إذ يمكنه أن يقول ، ما يقوله الآن ، وهو جالس على كرسي الرئيس ، أنا من مفرزة المحفوظات العامة للسجل المدني ، فكلمة مفرزة هذه ، كما يعتقد ، هي المفتاح السري الذي سيفتح أمامه كل الأبواب ، ويبدو أنه لا يجافي الحقيقة ، فها هم يردون عليه من الجانب الآخر ، أجل يا سيدي ، يمكنك المجيء متى شئت ، فاليوم لن نخرج من البيت . وجاءت ومضة رصانة أخيرة لتسوق إلى رأس دون جوزيه فكرة أنه إنما يعقد العقدة الأخيرة في أنشوطة الحبل الذي سيشنقه ، ولكن الجنون طمأنه ، قال له إن كشف المكالمات الهاتفية سيتأخر بضعة أسابيع قبل أن ترسله شركة الهاتف ، ومن يدري ، فقد يكون المدير في

إجازة عندئذ ، أو يكون مريضاً في بيته ، أو ربما سيأمر ببساطة أحد نائبيه بتدقيق الأرقام ، ولن تكون المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك ، وهو ما سيعني أن الجريمة لن تنكشف في الغالب ، إذا ما أخذنا في الاعتبار بأن أياً من نائبي المدير لن تروقه تلك المهمة ،حسن ،فليسترح الظهر مادامت العصا تروح وتجيء ، دمدم دون جوزيه بذلك ، مستسلماً لما يمليه القدر . أعاد دليل الهاتف إلى مكانه الدقيق على المنضدة ، ومسح السماعة بالمنديل ليمحو بصمات أصابعه ودخل إلى البيت . بدأ بتلميع الحذاء ، ثم مرّ بالفرشاة على البدلة ، ارتدى قميصاً نظيفاً ، وأفضل ربطة عنق ، وكان يمسك مقبض الباب للخروج عندما تذكر وثيقة التكليف . فالذهاب إلى بيت أبوي المرأة المجهولة وتقديم نفسه ببساطة بالقول ، أنا هو الشخص الذي اتصل من المحفوظات ، لن يكون له بالتأكيد القدرة على الإقناع والسلطة بالمفعول نفسه الذي سيكون لوضعه أمام عيونهما ورقة رسمية ،مختومة وموقعة ،تخول حاملها كامل الحقوق والصلاحيات في ممارسة مهامه ومن أجل الإنجاز التام للمهمة الموكلة إليه. فتح الخزانة ، وبحث عن ملف المطران وأخرج منه وثيقة التكليف ، ولكنه أدرك بنظرة واحدة أنها لن تنفع . أولاً لأن تاريخها سابق للانتحار ، وثانياً بسبب صيغة تحريرها بالذات ، وتضمنها مثل تلك العبارات التي تأمر بالتقصي الدقيق عن كل ما يتعلق بحاضر وماضي ومستقبل المرأة المجهولة ، وفكر دون جوزيه ، حتى أنني لا أعرف أين هي الآن ، وأما بالنسبة لحياتها المستقبلية، فقد تذكر في هذه اللحظة ، الأهزوجة الشعبية التي تقول ، ما هو وراء الموت ، لم يره أحد قط ، ولن يراه أحد ،فمن بين الكثيرين الذين ذهبوا هناك ، لم يرجع أحد على الإطلاق . وكان على وشك أن يعيد وثيقة التكليف إلى مكانها ،ولكنه اضطر في اللحظة الأخيرة إلى الرضوخ مرة أخرى للحالة الروحية التي تدفعه إلى التركيز بصورة لجوجة على فكرة والإلحاح عليها إلى أن يراها تتحقق .فبما أنه تذكر وثيقة التكليف ، فلا بد له من أن يحمل معه وثيقة تكليف . دخل ثانية إلى المحفوظات ، وتوجه إلى خزانة المطبوعات ،

ولكنه نسي أن خزانة المطبوعات صارت تُقفل على الدوام منذ ذلك التحقيق. أحس للمرة الأولى في حياته، كشخص مسالم، بهياج الغضب، وبلغ به ذلك إلى حد التفكير بتوجيه ضربة إلى الزجاج ولتذهب العواقب إلى الجحيم. ولكنه تذكر في الوقت المناسب لحسن الحظ بأن نائب المدير المكلف بالسهر على استهلاك المطبوعات يخبئ مفتاح الخزانة في درج منضدته، وأنه من غير المسموح، وفق أنظمة المحفوظات العامة الصارمة، إقفال أدراج منضدتي نائبي المدير، الشخص الوحيد الذي يحق له الاحتفاظ بالأسرار هنا هو أنا، هكذا كان قد قال الرئيس، وكلمته قانون، ولكنها لا تنطبق في هذه الحالة على المأمورين والكتبة لسبب بسيط هو أنهم، كما رأينا، يعملون على مناضد بسيطة، دون أدراج. لف دون جوزيه يده اليمنى بالمنديل حتى لا يترك أدنى أثر من أصابعه قد يشي به، وتناول المفتاح وفتح خزانة المطبوعات. أخرج ورقة رسمية عليها شعار المحفوظات، ثم أغلق الخزانة، وأعاد المفتاح إلى درج نائب المدير، وفي هذه اللحظة صدر صرير عن قفل باب المبنى الخارجي، سُمع لسان القفل وهو ينزلق مرة، فأصاب دون جوزيه الشلل لبرهة، ولكنه ما لبث أن تحرك على الفور، مثلما في أحلام طفولته تلك التي كان يطفو فيها، دون وزن، فوق الحدائق والأسطح، لقد تحرك بخفة على رؤوس أصابعه، وعندما فُتح الباب كان دون جوزيه قد صار في بيته، لاهثاً، كما لو أن قلبه قد صعد إلى فمه. مرَّ وقت طويل قبل أن يُسمع من الجانب الآخر للباب صوت أحدهم يسعل، وفكر دون جوزيه وهو يشعر بارتخاء في ساقيه، إنه الرئيس، لقد نجوت بأعجوبة. ثم سمع السعال مرة أخرى، أكثر قوة، وربما أكثر قرباً، مع فارق أنه يبدو في هذه المرة مقصوداً، متعمداً، وكأن من دخل يريد الإعلان عن وجوده. كان دون جوزيه ينظر برعب إلى قفل الباب الرقيق الذي يفصله عن المحفوظات. لم يجد الوقت الكافي ليدير فيه المفتاح، وكان لسان القفل الصغير وحده هو الذي يُبقي الباب مغلقاً، وراح صوت يصرخ في رأس دون جوزيه، إذا ما جاء، إذا ما أدار مقبض الباب، إذا ما

دخل هنا ، فإنه سيفاجئك متلبساً بالجرم المشهود ،بهذه الورقة في يدك ، ووثيقة التكليف على الطاولة ، ولم يقل له الصوت غير ذلك ، فقد كان يشفق على الكاتب ، ولم يحدثه عن العواقب . تراجع دون جوزيه بتمهل نحو الطاولة ، تناول وثيقة التكليف وخبأها ، مع الورقة التي أخرجها من الخزانة ، بين ملاءات السرير الذي لم يرتبه بعد . ثم جلس بعد ذلك وراح ينتظر . لو أن أحداً سأله ما الذي ينتظره ، لما عرف بماذا يجيب . مرت ساعة ، وبدأ دون جوزيه يفقد الصبر . لم يعد يصدر من الجانب الآخر للباب أي صوت . لا بد أن أبوي المرأة المجهولة يستغربان تأخر موظف المحفوظات ، انطلاقاً من مبدأ أن العجلة هي السمة الرئيسية لكل القضايا التي تتولاها مفرزة خارجية ، مهما كانت طبيعة عملها ،سواء الماء ، أو الغاز ، أو الكهرباء ، أو الانتحار . انتظر دون جوزيه ربع ساعة أخرى دون أن يتحرك عن الكرسي . وبعد هذا الوقت انتبه إلى أنه قد اتخذ قراراً ، ولم يكن ذلك متابعة فكرة ثابتة ببساطة كما هي العادة ، وإنما هو قرار ، بالرغم من أنه هو نفسه لا يعرف كيف اتخذه . فقد قال بصوت عالٍ تقريباً ، فليحدث ما يجب أن يحدث ، الخوف لا يحل أي مشكلة . وبرباطة جأش لم تعد تفاجئه ، تناول وثيقة التكليف والورقة الرسمية ، جلس إلى المنضدة ، وضع المحبرة أمامه ، وراح يستنسخ ، ويختصر وينقح ،محرراً الوثيقة الجديدة ، أحيط علماً ،بصفتي مدير هذه المحفوظات العامة للسجل المدني ، جميع من يهمهم الأمر ، مدنيين أو عسكريين ، خاصين أو عامين ، ممن يرون أو يقرؤون أو يراجعون هذا التكليف ، بأن فلان الفلاني قد تلقى مني مباشرة ، الأمر والتكليف بالتحري عن كل ما هو متعلق بظروف انتحار فلانة الفلانية ، وعن الأسباب البعيدة والقريبة لانتحارها ، بعد هذه النقطة بقي النص مطابقاً تقريباً للوثيقة الأولى ، حتى صيغة الأمر الأخيرة والحاسمة ، للتنفيذ . من المؤسف أنه لم يكن بالإمكان مهر الورقة بالخاتم ، إذ لا يمكن الوصول إليه الآن بسبب دخول الرئيس إلى المحفوظات ، ولكنه كان يعتمد إلى قوة السلطة التي تنضح من كل كلمة في الوثيقة . خبأ دون جوزيه وثيقة التكليف

الأولى مع قصاصات المطران ، ودس في جيب سترته الداخلية الوثيقة التي انتهى من كتابتها ، ثم نظر بنفحة تحدٍ إلى باب الاتصال مع المحفوظات . كان الصمت في الجانب الآخر ما يزال مطبقاً . عندئذ غمغم دون جوزيه ، لا فرق عندي أن تكون هناك أو لا تكون . ثم تقدم نحو باب الخروج مغادراً ، وأقفله بالمفتاح ، بفظاظة ، مديراً معصمه دورتين سريعتين ، ساب ، ساب .

نقلته سيارة أجرة إلى بيت أبوي المرأة المجهولة . قرع الجرس ، فظهرت سيدة تبدو في الستين وبضع سنوات قليلة ، وهي أصغر سناً بالتالي من سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي التي كان زوجها يخونها معها قبل ثلاثين سنة ، أنا الشخص الذي اتصل من المحفوظات العامة ،قال لها دون جوزيه ، تفضل بالدخول ، إننا في انتظارك ، اعذريني لأنني لم أحضر فوراً ،فقد كان علي أن أنجز قضية مستعجلة أخرى ، لا أهمية لذلك ، تفضل ، تفضل ، سأتقدمك . كان البيت غارقاً في جو مكفهر ،فهناك ستائر تغطي الأبواب والنوافذ ، وأثاث ثقيل ، وعلى الجدران لوحات قاتمة لمناظر طبيعية لم يكن لها وجود قط . أدخلت صاحبة البيت دون جوزيه إلى حجرة أشبه بمكتب ، حيث كان في الانتظار رجل أكبر منها سناً بصورة ملحوظة ، قالت له المرأة ، إنه السيد القادم من المحفوظات ، فدعاه الرجل مشيراً إلى كرسي ، تفضل بالجلوس . أخرج دون جوزيه وثيقة التكليف من جيبه ، وأمسكها بيده وهو يقول ، يؤسفني أن أزعجكم في حدادكم ، ولكنها متطلبات العمل ، هذه الوثيقة تبين بدقة فحوى مهمتي هنا . سلّم الورقة للرجل الذي قرأها وهو يقرّبها كثيراً من عينيه ، وقال أخيراً ، لابد أن مهمتك على جانب كبير من الأهمية ، وإلا لما حُررت وثيقة بمثل هذه المفردات لتبريرها ، إنه أسلوب المحفوظات العامة، حتى عندما يتعلق الأمر بمهمة بسيطة مثل هذه المهمة للتحقيق في أسباب انتحار ، أيبدو لك ذلك قليلاً ، أرجو ألا تسيء فهمي ،فما أردتُ قوله هو أنه مهما كانت المهمة التي نؤديها ، وتتطلب وثيقة تكليف ، فإن الأسلوب يكون على هذا النحو ، إنها بلاغة السلطة اللفظية ، يمكنك أن تسميها بذلك . وهنا

تدخلت المرأة لتسأل ، وما الذي تريد المحفوظات معرفته منا ، نريد أن نعرف السبب المباشر للانتحار في المقام الأول ، فسأله الرجل ، وفي المقام الثاني ، الحيثيات ، والظروف ، والملابسات ، وكل ما يمكن أن يساعدنا في فهم أفضل لما حدث ، ألا يكفي المحفوظات أن تعرف بأن ابنتي قد انتحرت ، عندما قلتُ لكما إنني أريد التكلم معكما لأسباب إحصائية ، كنتُ أُبَسِّطُ المسألة ، يمكنك الآن أن توضح ما تريد ، لقد ولى الزمن الذي كنا نكتفي فيه بالأرقام ، وصرنا نسعى في هذه الأيام إلى أن نعرف ، على أكمل وجه ممكن ، الإطار السيكولوجي الذي تتطور فيه سيرورة الانتحار ، فسألته المرأة ، ولماذا ، ما دام ذلك لا يعيد الحياة إلى ابنتي ، الفكرة المتوخاة هي إقرار معايير للتدخل ، فقال الرجل ، لستُ أفهمك . بدأ دون جوزيه يتعرق ، فالقضية أكثر تعقيداً مما توقعه ، يا للحر ، هتف بضيق ، فسألته المرأة ، هل تريد كأساً من الماء ، إذا لم يكن في ذلك إزعاج ، بالله عليكَ ، قالت المرأة ذلك وهي تنهض لتخرج ثم ترجع بعد دقيقة . وبينما كان دون جوزيه يشرب الماء الذي أحضرته ، قرر أنه لا بد له من أن يغير تكتيكه . وضع الكأس على الصينية التي تحملها المرأة وقال ، تصوروا أن ابنتكما لم تنتحر بعد ، وتصوروا أن البحث الذي تقوم به المحفوظات العامة للسجل المدني قد أتاح لنا إسداء بعض النصائح والتوصيات التي يمكن لها ، إذا ما طُبقت في الوقت المناسب ، أن تُوقف ما أسميته سابقاً سيرورة الانتحار ، فسأله الرجل ، أهذا هو ما كنتَ تعنيه بمعايير التدخل ، أجل ، بالضبط ، قال دون جوزيه ذلك ، ثم وجه الطعنة الأولى دون أن يفسح المجال لتعليق آخر ، وإذا كنا لم نستطع الحيلولة دون انتحار ابنتكما ، فربما سنتمكن ، بمساعدتكما ومساعدة آخرين في مثل وضعكما ، من تجنب الكثير من المآسي والكثير من الدموع . كانت المرأة تبكي وهي تهمهم ، يا لابنتي الحبيبة ، بينما الرجل يمسح عينيه بظاهر يده بعنف مكبوح . وكان دون جوزيه يأمل بألا يجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى وسيلة أخيرة ، ستكون ، كما فكر ، قراءة وثيقة التكليف بصوت عالٍ وصارم ، كلمة كلمة ، وكأنها

أبواب تُغلق على التوالي فلا تترك للسامع إلا مخرجاً وحيداً يتمثل في الانصياع الفوري لواجب التكلم . فإذا ما أخفقت هذه الوسيلة ، فلن يكون أمامه سوى التماس العذر بأسرع ما يمكن والخروج مبدياً أكبر قدر من السخط . وسيكون عليه عندئذ أن يصلي كي لا يخطر ببال أبي المرأة المجهولة هذا أن يتصل بالمحفوظات العامة طالباً توضيحات بشأن زيارة موظف يدعى دون جوزيه ، ولستُ أذكر كنيته . لم يكن كل ذلك ضرورياً . فقد طوى الرجل وثيقة التكليف وأعادها إليه . ثم قال ، إننا تحت تصرفك . تنفس دون جوزيه الصعداء ، لقد صار الطريق مفتوحاً أمامه أخيراً للدخول في الموضوع ، هل تركت ابنتكما رسالة ما ، لا ، لم تترك أي رسالة ، ولا أي كلمة ، أتريد أن تقول أنها انتحرت هكذا دون أية مقدمات ، لا بد أن تكون لديها أسبابها ، ولكننا لم نكن نعرفها ، وقالت المرأة ، لقد كانت تعيسة ، فقاطعها زوجها بنفاد صبر ، ما من سعيد ينتحر ، وسألهما دون جوزيه ، ولماذا كانت تعيسة ، لا أدري ، منذ طفولتها كانت تبدو كئيبة ، وكنت أطلب منها أن تخبرني بما تعانيه فترد عليّ دوماً بالكلمات نفسها ، لستُ أعاني من أي شيء يا أماه ، لم يكن الطلاق إذن هو سبب الانتحار ، على العكس ، وإذا كنتُ قد رأيت ابنتي سعيدة يوماً ، فإن ذلك حدث بعد انفصالها عن زوجها ، ألم تكن علاقتها بزوجها جيدة ، لم تكن جيدة ولا سيئة ، بل كانت عادية مثل أزواج كثيرين ، ومن منهما الذي طلبَ الطلاق ، هي ، هل كان هناك دافع محدد ، على حد علمنا لا ، كان ذلك وكأنهما وصلا كلاهما إلى نهاية طريق ، وماذا عنه ، عادي ، إنه شخص عادي جداً ، حسن الطباع ، ولم يكن يبدي لنا تذمره قط ، وهل كان يحبها ، أظن ذلك ، وهل كانت هي تحبه ، أظن ذلك أيضاً ، ومع ذلك لم يكونا سعيدين ، لم يكونا سعيدين مطلقاً ، يا له من وضع غريب ، فقال الرجل ، الحياة غريبة . ساد الصمت ، فنهضت المرأة وخرجت . وبقي دون جوزيه حائراً ، لم يكن يدري إذا ما كان من الأفضل أن ينتظر إلى أن تعود أم يواصل الحديث مع الرجل . كان يخشى من أن يؤدي توقف الحوار إلى تعثر

الاستجواب ، وكان التوتر في الجو يكاد يكون ملموساً .تساءل دون جوزيه عما إذا لم تكن عبارة الرجل تلك ، الحياة غريبة ، إلا صدى لعلاقته القديمة مع سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، وإذا لم يكن خروج المرأة المفاجئ سوى ردّ من لم يكن بإمكانها في تلك اللحظة تقديم ردّ آخر . تناول دون جوزيه الكأس ، وشرب قليلاً من الماء لكي يكسب الوقت ، ثم وجه سؤالاً دون تفكير ، هل كانت ابنتكَ تعمل ، أجل ، كانت معلمة رياضيات ، أين ، في المدرسة نفسها التي كانت تتعلم فيها قبل الذهاب إلى الجامعة. تناول دون جوزيه الكأس مرة أخرى ، وكان على وشك أن يوقعه في تعجله ، فتلعثم بصورة مضحكة ، المعذرة ، المعذرة ، ثم انقطع صوته فجأة ، وبينما هو يشرب ، راح الرجل ينظر إليه بفضول مزدر ، فقد بدا له أن المحفوظات العامة للسجل المدني ، بالنظر إلى هذا النموذج ، تعاني من سوء كفاءة موظفيها ، فليس من اللائق أن يظهر أحدهم مسلحاً بوثيقة تكليف مثل تلك ليتصرف بعد ذلك كأحمق . دخلت المرأة في اللحظة التي كان زوجها يسأله بسخرية ، ألا تريد أن أعطيك اسم المدرسة ،فربما ينفعك في الوصول إلى نتائج جيدة في مهمتك ، أشكرك على ذلك شكراً جزيلاً .انحنى الرجل على المنضدة ، وكتب على ورقة اسم المدرسة والعنوان ، وقدمه بجفاء إلى دون جوزيه ، ولكن الشخص الذي بدا أمامه الآن لم يعد الشخص نفسه الذي كانه قبل لحظات ، فقد استعاد دون جوزيه هدوءه عندما تذكر أنه يعرف سراً من أسرار هذه الأسرة ،سر قديم لا يمكن لأي من الزوجين أن يتصور أنه يعرفه . ومن هذه الفكرة برز السؤال الذي وجهه على إثر ذلك ، هل تعرفان إذا ما كان لدى ابنتكما مذكرات ما ،قالت الأم ، لا أعتقد ، أو أنني لم أجد على الأقل شيئاً من هذا القبيل ، ولكن لا بد أن تكون هناك أوراق مكتوبة ، ملاحظات ، فإذا ما سمحتم لي بإلقاء نظرة عليها ، فقد أجد فيها شيئاً مهماً ، فقال الأب ، حتى الآن لم نُخرج أي شيء من البيت ، ولا أدري متى سنفعل ذلك ، وهل كانت ابنتكما تعيش في بيت مستأجر ، لا ، البيت ملك لها ، أفهم ذلك . ساد صمت

قصير ،فتح دون جوزيه خلاله وثيقة التكليف بتمهل ، ونظر إليها من أعلى إلى أسفل كما لو أنه يتأكد من الصلاحيات التي ما زال بإمكانه استخدامها ، ثم قال ، هل تسمحون لي بالذهاب إلى هناك ، بحضوركم طبعاً ،لا ،جاء الجواب جافاً وحازماً ،فذكّره دون جوزيه ، وثيقة تكليفي ،فقال الرجل ، يمكن لوثيقة تكليفك أن تكتفي الآن بالمعلومات التي حصلت عليها ، ثم أضاف ، وإذا رغبتَ ، يمكننا مواصلة الحديث غداً في المحفوظات ، واعذرني الآن ، فلدي أمور أخرى ينبغي لي أن أسويها ،فرد دون جوزيه ، لا حاجة لذهابك إلى المحفوظات ، فما سمعتُه حول حيثيات الانتحار يبدو لي كافياً ، ولكن ما زالت لدي ثلاثة أسئلة ، ما هي ، بأي شيء ماتت ابنتكما ، تناولت جرعة مفرطة من الحبوب المنومة ، وهل كانت وحدها في البيت ، أجل ، وهل وضعتم لوحة على قبرها ، إننا نرتب هذا الأمر ،ولكن ما سبب هذا السؤال ، لا شيء ، إنه الفضول وحسب . نهض دون جوزيه ، وقالت المرأة ، أنا سأرافقك . وعندما صارا في الممر ، رفعت إصبعها إلى شفتيها طالبة منه أن ينتظر . أخرجت دون ضجة من درج منضدة صغيرة هناك ، ملتصقة بالجدار ، حزمة مفاتيح . وبعد ذلك ، بينما هي تفتح الباب ،دستها في يد دون جوزيه هامسة ، إنها مفاتيحها ، وسأمر في أحد هذه الأيام على المحفوظات لاستعادتها . ثم اقتربت منه أكثر ، وبما يشبه الزفرة ، أخبرته بالعنوان .



نام دون جوزيه كأنه حجر .بعد أن عاد من الزيارة المجازفة ، إنما ذات النتيجة الجيدة ، لأبوي المرأة المجهولة أراد أن ينقل إلى الدفتر أحداث نهاية أسبوعه الاستثنائية ، ولكن النعاس كان قوياً إلى حد لم يتمكن معه من الذهاب إلى ما هو أبعد من المحادثة مع كاتب المقبرة العامة . ذهب إلى الفراش دون عشاء ، وخلال أقل من دقيقتين كان قد نام ، وعندما فتح عينيه ،مع أول أضواء الفجر ،اكتشف أنه ، دون أن يعرف كيف ولا متى ، قد اتخذ قراراً بعدم الذهاب إلى العمل . كان اليوم هو الاثنين ، وهو تحديداً أسوأ الأيام للتغيب عن الخدمة ،وخصوصاً بالنسبة إلى كاتب . فمهما كان السبب الذي سيتذرع به ، ومهما أمكن له أن يبدو مقنعاً في مناسبة أخرى ، فإنه سيُعتبر مريباً إذا لم يُنظر إليه على أنه مجرد ذريعة زائفة ، الهدف منها تبرير إطالة خمول يوم الأحد في يوم مكرس قانونياً للعمل .فبعد المخالفات المسلكية المتتالية والمتزايدة الخطورة التي ارتكبها مذ بدأ البحث عن المرأة المجهولة ، أدرك دون جوزيه أنه يمكن للتغيب عن العمل أن يكون القطرة التي ستجعل كأس صبر الرئيس يطفح . ولكن هذه الرؤية لم تكن كافية مع ذلك للتقليل من عزمه على القرار . لقد كان هناك سببان يجعلان ما سيقدم عليه دون جوزيه غير ممكن التأجيل إلى ما بعد ظهر يوم لا عمل فيه.

أول هذين السببين هو أن أم المرأة المجهولة ستأتي إلى المحفوظات في أحد هذه الأيام لاسترداد المفاتيح ، والسبب الثاني هو أن المدرسة ، مثلما يعرف دون جوزيه جيداً ، وهي معرفة تحققت بتجربة قاسية ، تبقى مغلقة في نهاية الأسبوع .

وعلى الرغم من أنه قرر عدم الذهاب إلى العمل ، فقد استيقظ دون جوزيه في وقت مبكر جداً .فهو يريد أن يكون بعيداً عن هناك عندما تفتح المحفوظات أبوابها ، لأنه قد يخطر لنائب مدير قسمه أن يرسل أحدهم إلى بيته ، ليسأل عما إذا كان قد مرض ثانية . وبينما هو يحلق ذقنه أمعن التفكير في ما إذا كان من الأفضل الذهاب أولاً إلى بيت المرأة المجهولة أم إلى المدرسة ، ولكنه انتهى إلى تفضيل المدرسة ، فهذا الرجل ينتمي إلى جموع من يتركون ، على الدوام ، ما هو مهم إلى ما بعد . وتساءل أيضاً عما إذا كان عليه أن يأخذ معه وثيقة التكليف أم أن إظهارها سيعرضه للخطر ، آخذاً بعين الاعتبار أن مدير المدرسة ، بحكم منصبه ، يجب أن يكون شخصاً مطلعاً وعارفاً ، وواسع القراءات ، ولنتصور أن المفردات المستخدمة في تحرير الوثيقة بدت له غير مألوفة ، وغريبة ، ومبالغاً فيها ، ولنتصور أنه طلب معرفة السبب في عدم وجود ختم على الوثيقة ، إن الحذر يستدعي ترك هذا التكليف إلى جانب الآخر السابق ، بين قصاصات المطران البريئة ، وانتهى دون جوزيه إلى الاستنتاج ، بطاقة الهوية التي تبين أني موظف في المحفوظات العامة يجب أن تكون أكثر من كافية ، وأنا في نهاية المطاف لا أريد سوى التأكد من معلومة محددة ، موضوعية ، حول إذا ما كانت المرأة المنتحرة هي أستاذة رياضيات في تلك المدرسة . كان الوقت ما يزال مبكراً عندما خرج من البيت ، وكانت الدكاكين مقفلة ، دون أضواء ، وحركة مرور السيارات لا تكاد تُلحظ ، وربما كان أكثر موظفي المحفوظات نشاطاً ينهض من فراشه في هذا الوقت . ولكي لا يراه أحد في الجوار ، اختبأ دون جوزيه في

حديقة توجد على بعد كتلتين من العمارات ، في الجادة الرئيسية ، تلك التي تمر منها الحافلة التي حملته إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق الأرضي ، في مساء اليوم الذي رأى فيه الرئيس يدخل إلى المحفوظات . وما لم يكن هناك من يعرف مسبقاً أنه موجود هناك ، فإن أحداً لن يستطيع تمييزه بين الشجيرات ، بين أغصان الأشجار الواطئة . وبسبب الرطوبة الليلية ، لم يجلس دون جوزيه على مقعد ، بل أمضى الوقت وهو يمشي في الممرات المحفوفة بالأشجار ، وشغل نفسه بالنظر إلى الأزهار والتساؤل عن أسمائها ، فليس من المفاجئ أن تكون معارفه النباتية ضئيلة وهو الذي أمضى حياته كلها محشوراً بين أربعة جدران ، ومتنفساً رائحة الأوراق القديمة اللاذعة ، وما هو لاذع أكثر ، رائحة الأقحوان والورد تلك التي تجوب الهواء دائماً ، والتي ذُكرت في بداية هذه القصة . عندما أشارت الساعة إلى موعد فتح أبواب المحفوظات العامة للجمهور ، انطلق دون جوزيه ، الذي بقي بمنجى من لقاءات غير مواتية ، باتجاه المدرسة . لم يكن متعجلاً ، فالنهار كله تحت تصرفه ، ولهذا قرر الذهاب سيراً على الأقدام . وبما أنه انطلق من الحديقة فقد خامرته الشكوك حول الاتجاه الذي سيتخذه ، وفكر في لو أنه اشترى خريطة للمدينة ، مثلما كان ينوي ، لما احتاج الآن لأن يسأل شرطياً ليوجهه ، ولكن الحقيقة أن هذا الوضع ، بوجود رجل قانون يوجهه نحو الجريمة ، أشعره بشيء من السعادة الهدامة . لقد وصلت قضية المرأة المجهولة إلى نهايتها ، ولم يبق أمامه سوى هذا التحري في المدرسة ، وتفحص البيت ، وإذا ما توفر لديه وقت بعد ذلك فسوف يقوم بزيارة سريعة إلى سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ليخبرها بآخر المستجدات ، ولا شيء بعد ذلك . وفكر كيف سيعيش حياته من الآن فصاعداً ، وهل سيعود إلى مجموعات شخصياته المشهورة ، وأُعجب خلال ثوان سريعة بتخيل نفسه جالساً إلى المنضدة في السهر ، وهو يقص الأخبار والصور من كومة صحف ومجلات

بجانبه ،مستشفاً بروز شخصية ستكون مشهورة ، أو تحولها إلى الاضمحلال ،ففي الماضي ، توصل أحياناً إلى رؤية مسبقة لمصير بعض الأشخاص الذين تحولوا إلى الشهرة ،وكان في بعض الأحيان أول من أحس بأن إكليل غار هذا الرجل أو تلك المرأة سيبدأ بالذبول ، بالجفاف ، بالتحول إلى غبار ، كل شيء ينتهي إلى القمامة ، قال دون جوزيه ذلك ، دون أن ينتبه في تلك اللحظة إذا ما كان يفكر في الشهرة المفقودة أم في مجموعته .

الشمس التي كانت تنعكس بقوة على الواجهة ،وخضرة أشجار الفناء ، ولأحواض الزهور المتفتحة ، ومظهر المدرسة لم يكن يُذكّر بأي حال

[illegible]

الوثيقة ، إن الحذر يستدعي ترك هذا التكليف إلى جانب الآخر السابق ، بين قصاصات المطران البريئة ، وانتهى دون جوزيه إلى الاستنتاج ، بطاقة الهوية التي تبين أني موظف في المحفوظات العامة يجب أن تكون أكثر من كافية ، وأنا في نهاية المطاف لا أريد سوى التأكد من معلومة محددة ، موضوعية ،حول إذا ما كانت المرأة المنتحرة هي أستاذة رياضيات في تلك المدرسة . كان الوقت ما يزال مبكراً عندما خرج من البيت ، وكانت الدكاكين مقفلة ، دون أضواء ، وحركة مرور السيارات لا تكاد تُلحظ ، وربما كان أكثر موظفي المحفوظات نشاطاً ينهض من فراشه في هذا الوقت . ولكي لا يراه أحد في الجوار ، اختبأ دون جوزيه في

سأله ، ما هو الموضوع ، إنه يتعلق بمعلمة ،وما علاقة المحفوظات العامة بمعلمي هذه المدرسة ،ليست لنا علاقة بهم كمعلمين ، وإنما بوصفهم أشخاصاً ، أوضح من فضلك ، إننا نقوم بأبحاث حول ظاهرة الانتحار ، سواء من حيث مظاهرها النفسية أو آثارها الاجتماعية ،وأنا مكلف بقضية سيدة كانت معلمة رياضيات في هذه المدرسة وانتحرت . أبدى المدير ملامح الأسى وقال ، يا للسيدة المسكينة ، إنها قصة حزينة لم يستطع أي منا حتى اليوم أن يفهمها ، فقال دون جوزيه مستخدماً أكثر نبرة رسمية ممكنة ، أول عمل علينا القيام به هو المبادرة إلى مطابقة عناصر هويتها الموجودة في أرشيف المحفوظات العامة مع السجل المهني للمعلمة ، أظنك تعني سجلها كعضو في هيئتنا التدريسية ، أجل يا سيدي . فالتفت المدير إلى المسؤولة عن السكرتارية ، ابحثي لي عن هذه البطاقة ، نحن لم نسحبها من الدرج بعد ، قالت المرأة ذلك بنبرة متأسفة ، في الوقت الذي راحت تمر بأصابعها على بطاقات أحد أدراج الأرشيف ، ثم قالت ، إنها هنا . أحس دون جوزيه بانقباض مفاجئ في بواب معدته ، وببداية دوار لم يتعدَ لحسن الحظ إلا المرور سريعاً في رأسه ، لقد كان الجهاز العصبي لهذا الرجل في حالة يرثى لها عملياً ، إنما علينا أن نعترف بأن البطاقة التي تُعرض عليه الآن ، كانت في متناول يده في مرة سابقة ، فما كان عليه إلا أن يفتح ذلك الدرج الذي كُتبت عليه كلمة "الأساتذة" ، ولكن كيف كان بإمكانه أن يتصور آنذاك أن الطفلة التي كان يبحث عنها ستصبح معلمة رياضيات في المدرسة التي تعلمت فيها تحديداً . دارى اضطرابه ، وإن لم يستطع مداراة ارتعاش يديه ، وتظاهر دون جوزيه بأنه يطابق بطاقة المدرسة مع نسخة بطاقة المحفوظات العامة ، ثم قال بعد ذلك ، إنها الشخص نفسه . كان المدير ينظر إليه باهتمام ، وسأله ، أنت لست على ما يرام ، فرد هو ببساطة ، هذا طبيعي ، فأنا لم أعد شاباً ،أعتقدُ أنك ستوجه إلي بعض الأسئلة ، وهو كذلك ،

تفضل معي إذن ، فلنذهب إلى مكتبي . ابتسم دون جوزيه بينه وبين نفسه بينما هو يتبع المدير ، وفكر ، أنا لم أكن أعرف أن بطاقتها كانت هناك ، وأنتَ لا تعرف أنني أمضيت ليلة على أريكة مكتبك . دخلا إلى المكتب ، ونبهه المدير ، ليس لدي متسع كبير من الوقت ، ولكنني تحت تصرفك ، تفضل بالجلوس ، وأشار إلى الأريكة التي كان الزائر قد استخدمها كسرير . قال دون جوزيه ، أريد أن أعرف إذا ما لاحظتم تبدلاً في حالتها المعنوية خلال الأيام التي سبقت الانتحار ، لم نلحظ أي تبدل ، فقد كانت شخصية متكتمة وصموتة جداً على الدوام ، وهل كانت معلمة جيدة ، من أفضل الأساتذة الذين عرفتهم المدرسة ، هل كانت تربطها صداقة بأحد زملائها ، صداقة ، بأي معنى ، صداقة ، دون أي معنى آخر ، لقد كانت لطيفة ، مهذبة في تعاملها مع الجميع ، ولكنني لا أظن أنه يمكن لأحد هنا أن يقول إنه كان على علاقة صداقة معها ، وماذا عن التلاميذ ، هل كانوا يقدرونها ، كثيراً ، وهل كانت سليمة البنية ، على حد علمي ، أجل ، أمر غريب ، ما هو الغريب ، لقد تكلمتُ مع أبويها وكل ما سمعته منهما ، إضافة إلى ما أسمعه الآن ، يشير إلى انتحارٍ لا تفسير له ، فقال المدير ، إنني أتساءل عما إذا كان الانتحار عملاً قابلاً للتفسير ، هل تقصد انتحارها ، بل أقصد الانتحار عموماً ، إنهم يتركون رسائل أحياناً ، هذا صحيح ، ولكن ما لا أعرفه هو إذا كان بالإمكان اعتبار ما يقولونه فيها تفسيراً ، ففي الحياة هناك أمور كثيرة بحاجة إلى تفسير ، معك حق ، ما هو تفسير ما حدث هنا مثلاً قبل أيام من الانتحار ، ما الذي حدث ، عملية سطو على المدرسة ، صحيح ، وكيف عرفتَ ذلك ، المعذرة ، كنتُ أحاول الاستفهام ، وربما لم أُوفق في النبرة المناسبة ، ولكن عمليات السطو يمكن تفسيرها بسهولة ، اللهم إلا عندما يصعد الفاعل إلى سطح ، ويدخل من نافذة بعد أن يكسر الزجاج ، ويتجول في كل أنحاء المكان ، وينام على أريكة مكتبي ، ويأكل ما يجده في الثلاجة ، ويستخدم أدوية

من خزانة الإسعاف ، ثم يغادر أخيراً دون أن يأخذ أي شيء ، وكيف تعرف أنه نام على الأريكة ، لأننا وجدنا على الأرض البطانية التي أغطي بها ركبتي لأحميهما من البرد ،فأنا لستُ شاباً كذلك ، مثلما قلتَ حضرتك ، وهل أبلغتم الشرطة ، لماذا نبلغها ، طالما أنه لم يسرق ، فلا حاجة إلى ذلك ، فالشرطة ستقول إنها موجودة للتحقيق في الجرائم وليس لحل الألغاز ، أمر غريب دون شك ، لقد تفقدنا كل شيء ، كل المنشآت ، وكان صندوق الخزنة سليماً ، وكل شيء في مكانه ، باستثناء البطانية ، أجل ، باستثناء البطانية ، فهل تجد تفسيراً لذلك ، يجب توجيه السؤال إلى الفاعل نفسه ، ولا بد أن يكون لديه تفسير ،وما أن قال دون جوزيه هذه الكلمات ، حتى نهض قائلاً ، أيها السيد المدير ، لن أسطو على مزيد من وقتك ، أشكر لك اهتمامك الذي أبديته بالموضوع غير السعيد الذي جاء بي إلى هنا ، لا أظن أنني قدمت لك مساعدة كبيرة ، ربما كنتَ على حق عندما قلت إنه لا يمكن إيجاد تفسير لأي انتحار ، إذا ما فُسِّرَ عقلانياً ،سيُفهم ، كل شيء جرى كما لو أنها لم تفعل أكثر من فتح باب والخروج ، أو الدخول ، أجل ، أو الدخول ، حسب وجهة النظر ، في هذا تجد تفسيراً رائعاً ،لقد كان تعبيراً مجازياً، والمجازات هي أفضل طريقة لتفسير الأمور ، عمت صباحاً أيها السيد المدير ، أشكرك من أعماق قلبي ، عمت صباحاً ،لقد سعدت بالتحدث إليك ، ولستُ أشير بالطبع إلى الحدث الحزين ، وإنما إلى شخصك بالذات ، بالطبع ، إنها عبارات تقال ،سأرافقك حتى الدرج . وبينما كان دون جوزيه ينزل المقطع الأخير من الدرج ، تذكر المدير أنه لم يسأله عن اسمه ، ثم قدّر على الفور ، ليس لذلك أي أهمية ، إنها قصة منتهية .

لم يكن بإمكان دون جوزيه أن يقول الشيء نفسه ، إذ ما زال عليه أن يقوم بخطوة أخرى ، عليه أن يبحث في بيت المرأة المجهولة عن رسالة أو عن مذكرات ، أو عن مجرد ورقة نَفَّست فيها عن كربها ، صرختها ، ما

يتوجب على أي منتحر أن يتركه خلفه قبل أن يعبر ذلك الباب حتى يتمكن من يبقون في هذا الجانب من الباب طمأنة ذعر ضميرهم بالقول ، يا للمسكين ، كانت لديه مبرراته . ولكن الروح البشرية مع ذلك ، وكم من مرة توجب قول ذلك ، هي المكان المفضل للتناقضات ، وقد لوحظ مؤخراً أن تلك التناقضات تزدهر أو أنها تجد ببساطة ظروف وجود حيوية خارج الروح ، ولا بد أن هذا هو السبب في مضي دون جوزيه هائماً على وجهه عبر المدينة ، من جهة إلى أخرى ، إلى أعلى وأسفل ، مثل ضائع بلا خريطة أو دليل ، وهو يُعرف تماماً ما يتوجب عليه عمله في هذا اليوم الأخير ، لأن الغد سيكون زمناً آخر ، أو أنه هو نفسه سيكون شخصاً آخر في زمن مماثل لهذا ، والدليل على أنه يعرف ذلك هو أنه قد فكر فيه ، من سأكون أنا غداً ، بعد الانتهاء من هذا الأمر ، وأي نوع من الكتبة سأكون في المحفوظات العامة للسجل المدني . مرّ مرتين من أمام بيت المرأة المجهولة ، مرتين دون أن يتوقف ، كان خائفاً ، لن نسأله مم هو خائف ، فهذا التناقض هو من أكثر التناقضات ظهوراً للعيان ، لأن دون جوزيه يريد ولا يريد ، يرغب ويخشى ما يرغب فيه ، حياته كلها كانت على هذا المنوال . وهو الآن ، من أجل كسب الوقت ، من أجل تأجيل ما يعرف أنه محتم ولا مناص منه ، يقرر بأن عليه أن يتناول الغداء أولاً ، في مطعم رخيص ، مثلما تفرض عليه محفظته الهزيلة ، ولكن عليه قبل كل شيء أن يكون بعيداً عن هذه الأماكن ، حتى لا يرتاب أحد الجيران الفضوليين بنوايا هذا الرجل الذي مرّ من هنا مرتين . ومع أن مظهره لا يتميز عن المظهر الذي يبدو عادة على الناس الشرفاء ، إلا أن ما نراه لا يوفر ضمانات مؤكدة على الدوام ، فالمظاهر تخدع كثيراً ، ولهذا نسميها مظاهر ، مع أنه في هذه الحالة التي أمامنا ، وبالنظر إلى السن وهشاشة البنية الجسدية ، لا يمكن لأحد أن يفكر في القول مثلاً بأن دون جوزيه يعيش على سطو البيوت ليلاً . أطال أمد الغداء البسيط

إلى أقصى ما استطاع ، وعندما نهض عن المائدة كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بكثير ، ودون تعجل ، كما لو أنه يجرجر قدميه ، راح يقترب من الشارع الذي عاشت فيه المرأة المجهولة . وقبل أن ينعطف في الزاوية الأخيرة توقف ، وتنفس بعمق ، لستُ رعديداً ، فكر كي يمنح نفسه الحماس ، ولكنه كان ، مثلما يحدث لكثير من الشجعان ، شجاعاً في بعض الأمور ، وجباناً في غيرها ، فواقع أنه أمضى ليلة في المقبرة لا يعني أنه سيتخلص من الارتعاش في ساقيه الآن . دس يده في جيب سترته الخارجي ، تلمس المفاتيح ، أحدها هو مفتاح صندوق البريد ، وهو صغير وضيق ، لا بد من استبعاده بالطبع ، أما المفتاحان الآخران فهما متماثلان تقريباً ، أحدهما لباب المبنى المؤدي إلى الشارع ، والثاني هو مفتاح الشقة ، عسى أن يصيب في استخدام المفتاح الصحيح فوراً ، لأنه إذا كانت هناك في المبنى بوابة ، وكانت من أولئك اللواتي يرصدن أي ضجة ليحشرن أنوفهن ، فأي تفسير سيقدم لها ، يمكنه أن يقول إنه جاء بتفويض من أبوي السيدة التي انتحرت ، وإنه آت من أجل جرد الممتلكات ، فأنا موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني يا سيدتي ، وهذه هي بطاقتي ، وقد أعطوني كما ترين مفتاح البيت . أصاب دون جوزيه في اختيار المفتاح من المحاولة الأولى ، وحارسة البوابة ، إذا كانت هناك حارسة في المبنى ، لم تظهر لتسأله ، إلى أين أنت ذاهب يا سيدي ، مع أن أفضل حارس للكَرْم ، كما يقال ، هو الخوف من مجيء الحارس ، وسوف نرى فيما بعد إذا ما كان الحارس سيظهر . لقد كان هناك في البناء ، على الرغم من قِدمه ، مصعد ، ولم يكن بإمكان دون جوزيه ، بهذا الثقل الذي يشعر به في ساقيه ، أن يصعد إلى الطابق السادس ، حيث كانت تعيش معلمة الرياضيات . صرّ الباب لدى فتحه ، مثيراً ذعر الزائر ، الذي بدأ يتشكك فجأة في جدوى المبرر الذي فكر في تقديمه إلى البوابة إذا ما واجهته . انسل بسرعة إلى داخل البيت ، وأغلق الباب بكل حذر

ليجد نفسه في عتمة كثيفة ، لا تحتاج إلا قليلاً لتكون ظلاماً دامساً . تلمس الجدار إلى جانب إطار الباب ، وعثر على مفتاح نور ، ولكن الحذر أوحى له بعدم إشعاله ، فقد يكون من الخطر إشعال الأنوار . وشيئاً فشيئاً راحت عينا دون جوزيه تعتادان على العتمة ، قد يقال إن ذلك ما سيخطر لأي شخص آخر في مثل تلك الحالة ، ولكن ما هو غير معروف عادة ، أن كتبة المحفوظات العامة ،بسبب اضطرارهم إلى التردد بانتظام على أرشيف الموتى ، يكتسبون ، مع مرور الوقت ، قدرات في التلاؤم البصري خارجة على المألوف . ويصل الأمر بهم إلى امتلاك عيون كعيون الهررة ، ما لم تدركهم سن التقاعد قبل ذلك .

على الرغم من أن الأرضيــة كـانت مـغطاة بالموكـيت ، إلا أن دون جـوزيه فكـر بأنه من الأفـضل خلع الحـذاء ليـجنـب أي اصطدام أو صـوت يمكن أن يُعلم ســاكني الطابق الســفلي بوجـوده . وبألف حــرص ســحب مزلاج درفتي إحدى النوافذ المطلة على الشارع ، ولكنه لم يفتحهما إلا بما يكفي لدخول بعض الضوء .لقد كان في غرفة نوم . وكان هناك صوان ، وخزانة ، وكوميدينو . أما السرير فهو ضيق ، إنه سرير عازبة ، كما كان يقال في ما مضى .وكان الأثاث من طراز بسيط وفاتح اللون ، على العكس من الطراز القاتم والثقيل للأثاث في بيت الأبوين . قام دون جوزيه بجولة في بقية غرف الشقة التي تقتصر على صالة جلوس مؤثثة بالأرائك المعهودة وبخزانة كتب تحتل جداراً من أقصاه إلى أقصاه ، وغرفة أصغر تُستخدم كمكتب ، والمطبخ الضيق ، والحمام الذي يكفي لهذا الغرض وحسب . هنا كانت تعيش امرأة انتحرت لأسباب غير معروفة، امرأة كانت متزوجة وطُلقت ، وكان بإمكانها أن تعود للعيش مع أبويها بعد الطلاق ، ولكنها فضلت البقاء وحدها ، امرأة كانت ، مثل الجميع ، طفلة وصبية ، وفي هذا الوقت ، بطريقة ما لا يمكن تحديدها ، تحولت إلى المرأة التي صارت إليها ، معلمة رياضيات لها اسمها كشخص حي في

السجل المدني إلى جانب أسماء كل الأشخاص الأحياء في هذه المدينة ، امرأة عاد اسمها كميتة إلى العالم الحي لأن دون جوزيه انتشله من عالم الأموات ، انتشل الاسم فقط ، وليس هي نفسها ، لأنه لا يمكن لكاتب عمومي أن يصل إلى أكثر من ذلك . ولأن كل الأبواب الداخلية كانت مفتوحة ، فقد أنار ضوء النهار البيت إلى حد ما ، ولكن يتوجب على دون جوزيه أن يبدأ بحثه إذا كان لا يريد التخلي عن مهمته في منتصفها. فتح درجاً في طاولة غرفة المكتب ، جال بنظرة متثاقلة على محتوياته ، بدت له تمارين رياضيات مدرسية ، حسابات ، معادلات ، لا شيء مما يمكن له أن يفسر حياة وموت المرأة التي كانت تجلس على هذا الكرسي ، وتشعل هذا المصباح ، وتمسك قلم الرصاص هذا لتكتب به . أغلق دون جوزيه الدرج ببطء ، وكان قد بدأ بفتح درج آخر ، ولكنه لم ينه حركته ، بل توقف مفكراً لوقت طويل ، أم أنها كانت بضع ثوانٍ فقط بدت له ساعات ، ثم دفع بعد ذلك الدرج بقوة ، ثم خرج من المكتب ، ثم جلس على إحدى أرائك الصالة وبقي هناك . كان ينظر إلى جوربيه العتيقين المرفوين ، وبنطاله المجعد والمشمر قليلاً ،وقصبتي ساقيه البيضاوين والنحيلتين والشعر القليل الذي عليهما . أحس أن جسده يتوافق مع تجويف تنجيد الأريكة الذي يغطي النوابض والذي كان قد أحدثه جسد آخر ،فغمغم ، لن تعود إلى الجلوس هنا أبداً .الصمت الذي بدا مطبقاً، بدأ يتقطع الآن بأصوات الشارع ، وخصوصاً بمرور سيارة بين حين وآخر ، ولكن كان هناك في الجو كذلك صوت تنفس متقطع ، وخفق بطيئ ، ربما هو تنفس البيوت عندما تُهجر ، أجل ، وربما لم ينتبه هذا البيت بعد إلى أن هناك أحداً بداخله . ويقول دون جوزيه لنفسه إنه ما زالت هناك أدراج عليه تفقدها ، أدراج الصوان ، حيث تُحفظ عادة الملابس الحميمة ، وأدراج الكوميدينو ، حيث تُحفظ في الغالب أشياء حميمة من نوع آخر ، والخزانة ، ويفكر في أنه إذا ما فتح الخزانة فلن يقاوم رغبته في أن

يجوب بأصابعه الملابس المعلقة ، هكذا ، كما لو أنه يداعب ملامس بيانو صامت ، ويفكر في أنه سيرفع أذيال أحد الأثواب ليشم الشذى ، العطر ، مجرد الرائحة . وهناك أدراج طاولة المكتب التي لم يفحصها ، ومجموعة الأدراج الصغيرة في خزانة الكتب ، فلا بد أن يكون مخبأ في مكان ما ذلك الشيء الذي يبحث عنه ، الرسالة ، المذكرات ، كلمة الوداع ، علامة الدمعة الأخيرة . لماذا كل هذا ، تساءل ، ثم أضاف ، فلنفترض أن تلك الورقة موجودة ، وأنني وجدتها ، وقرأتها ، لكن قراءتها لن تجعل الفساتين تبدل من كونها خاوية ، فمنذ هذه اللحظة لن تجد تمارين الرياضيات حلولاً ، ولن تُكتشف مجاهيل المعادلات الجبرية ، ولن يزاح غطاء السرير من مكانه ، ولن تنطبق طية الملاءة العلوية على الصدر ، ولن يضيء مصباح القراءة الذي بجانب السرير صفحة الكتاب ، فما انتهى قد انتهى . انحنى دون جوزيه إلى الأمام ، وترك جبهته تسقط على يديه ، كما لو أنه يريد مواصلة التفكير ، ولكن الأمر لم يكن كذلك ، لأن الأفكار قد نضبت . لقد خفت النور فجأة ، لا بد أن سحابة تمر في السماء . وفي هذه اللحظة رنَّ جرس الهاتف . لم يكن قد انتبه إلى وجوده من قبل ، ولكنه هناك ، على منضدة صغيرة ، في أحد الأركان ، كشيء نادراً ما يُستخدم ، دارت آلية تسجيل المكالمات ، ونطق صوت أنثوي بالرقم ، ثم أضاف بعد ذلك ، أنا لستُ في البيت ، اترك رسالتك بعد سماع الإشارة . أياً كان الشخص المتصل ، فقد أغلق السماعة ، هناك أناس ينفرون من التحدث إلى آلة ، أم أن الحالة الآن هي خطأ في الاتصال ، فلا حاجة إلى مواصلة المكالمة إذا نحن لم نتعرف على الصوت الصادر عن آلة التسجيل . هذا أمر يجب توضيحه لدون جوزيه الذي لم يرَ في حياته عن قرب مثل هذا الجهاز ، مع أنه في الغالب لن يولي أي اهتمام للتوضيح ، فقد أصابته الكلمات القليلة التي سمعها بالارتباك ، أنا لستُ في البيت ، اترك رسالتك بعد سماع الإشارة ، أجل ، أنها ليست في البيت ، ولن تكون فيه

بعد اليوم أبداً ، ولكن بقي صوتها ، خفيضاً ،مؤرقاً ،كأنه ساهٍ ، كما لو أنها كانت تفكر في شيء آخر عندما قامت بالتسجيل . قال دون جوزيه ، قد يعودون للاتصال ، ومتعللاً بهذا الأمل ، لم يتحرك عن الأريكة طوال أكثر من ساعة ، وشيئاً فشيئاً راحت عتمة البيت تصير أكثر كثافة ولم يرن جرس الهاتف ثانية . عندئذ نهض دون جوزيه وتمتم ، يجب علي أن أذهب ، ولكنه قبل أن يغادر قام بجولة أخيرة على البيت ، دخل إلى غرفة النوم ، حيث الضوء أكثر ، وجلس برهة على حافة السرير ، مر بيده ببطء مرة بعد مرة على طية الملاءة المطرزة ، ثم فتح الخزانة ، وهناك كانت فساتين المرأة التي نطقت بالكلمات الحاسمة ، أنا لستُ في البيت . مال على الفساتين إلى أن لمسها بوجهه ، الرائحة التي تفوح منها يمكن تسميتها برائحة الغياب ، أو أنها رائحة ذلك العطر الممزوج من الورد والأقحوان الذي ينتشر بين حين وآخر في المحفوظات العامة .

لم تظهر البوابة لتسأله من أين هو آت ، البناية صامتة ، تبدو وكأنها مهجورة . وكان هذا الصمت هو الذي ولّد في رأس دون جوزيه فكرة ، أكثر الأفكار جرأة في حياته ، وماذا لو بقيت هذه الليلة هنا ، لو نمت في فراشها ، لن يعلم أحد بالأمر . قل لدون جوزيه إنه ليس هناك ما هو أسهل من ذلك ، وإنه ليس عليه إلا أن يصعد مرة أخرى في المصعد ، ويدخل الشقة ، ويخلع حذاءه ، بل قد يحدث أن يخطئ أحدهم مرة أخرى برقم الهاتف . وإذا حدث ذلك ، ستستمتع مرة أخرى بسماع صوت معلمة الرياضيات المؤرق والخافت ، أنا لستُ في البيت ، ستقول هي ذلك ، وإذا ما حدث ، خلال الليل ، وأنت نائم في فراشها ، أن راودك حلم لطيف هيج جسدك العجوز ، فأنت تعرف ، العلاج في متناول يدك ، وما عليك إلا توخي الحذر بالنسبة للملاءات . إنها تهكمات وبذاءات لا يليق توجيهها إلى دون جوزيه ، ففكرته الجريئة ، أو الرومانسية أكثر مما هي جريئة ، سرعان ما مضت مثلما جاءت ، وهو لم يعد الآن داخل المبنى ،

وإنما خارجه ، ويبدو أن ما ساعده في الخروج هو تذكر جوربيه العتيقين المرفوين وقصبتي ساقيه النحيلتين البيضاوين بشعرهما الخفيف المتفرق . لا معنى لأي شيء في العالم ، غمغم دون جوزيه بذلك ، وتوجه نحو الشارع الذي تعيش فيه سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي . كان المساء يشرف على نهايته ، ولا بد أن المحفوظات العامة قد أُغلقت ، ولم تعد هناك ساعات طويلة قبل أن يتوجب على الكاتب أن يختلق قصة يبرر بها تغيبه عن العمل طوال يوم بكامله . فالجميع يعرفون أنه ليس لديه أقارب يضطر إلى أن يهب لنجدتهم بصورة مفاجئة ،وحتى لو كان له أقارب ، لن يكون ثمة عذر في حالته ،فهو الذي لا يفصله سوى جدار عن المحفوظات ، ليس عليه سوى الدخول ليقول من الباب ، وداعاً ، وإلى اللقاء في الغد ،فهناك ابنة عم لي تحتضر . ويقرر دون جوزيه بأن ما جرى قد جرى ، وأنه بإمكانهم أن يفصلوه إذا أرادوا ، أن يطردوه من الوظيفة ، ربما كان راعي الأغنام بحاجة إلى مساعد لتبديل أرقام القبور ، خصوصاً إذا كان يفكر في توسيع مجال نشاطاته ، فليس هناك مبرر لبقائها مقتصرة على المنتحرين ، فالميتون جميعهم سواسية في نهاية المطاف ، وما يمكن عمله لبعضهم يمكن عمله للجميع ، الخلط بينهم ، وما الفرق ، فالعالم لا معنى له .

عندما طرق دون جوزيه بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ، لم يكن يفكر إلا بفنجان الشاي الذي سيتناوله . طرق الباب مرة ، مرتين ، ولكن أحداً لم يفتحه . وبحيرة وقلق قرع جرس باب الشقة اليسرى . ظهرت امرأة سألته بنبرة جافة ،ماذا تريد ، لا أحد يرد في الجانب الآخر ، وماذا في ذلك ، ألا يمكنك أن تخبريني إذا كان قد حدث شيء ، أي شيء تعني ، حادث ، مرض ، مثلاً ، هذا ممكن ، فقد جاءت سيارة إسعاف لأخذها ، ومتى حدث ذلك ، منذ ثلاثة أيام ، ولم يأت أي خبر آخر عنها ، ألا تعرفين أين هي الآن ، لا يا سيدي ، المعذرة . وأغلقت المرأة الباب تاركة دون جوزيه في الظلام . فكر ،غداً سأذهب إلى

المستشفيات . كان يشعر بالإنهاك ، لقد أمضى النهار كله وهو يتنقل من مكان إلى آخر ، انفعالات قوية طوال النهار ، وتأتي الآن هذه الصدمة للإجهاز عليه . خرج من البناية وبقي على الرصيف يتساءل عما إذا كان بإمكانه عمل شيء آخر ،سؤال أحد المستأجرين الآخرين ، فلن يكونوا جميعهم غير لطفاء مثل مستأجرة الشقة اليسرى في الطابق فوق الأرضي ، رجع دون جوزيه إلى البناية ، وصعد الدرج حتى الطابق الثاني ، وطرق باب أم الطفلة وزوجة الرجل الغيور ، لا بد أنه قد رجع من عمله في هذه الساعة ، ولكن لا أهمية لذلك ، فدون جوزيه ذاهب إلى هناك للسؤال فقط إذا ما كانوا يعرفون شيئاً عن الجارة المقيمة في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي . كان نور الدرج مضاء ،فُتح الباب ، ولم تكن المرأة تحمل طفلتها بين ذراعيها ، ولم تتعرف على دون جوزيه ، سألته ،ماذا تريد ، اعذريني للإزعاج ،لقد جئت لزيارة سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ، ولكنها غير موجودة ، وقد أخبرتني مستأجرة الشقة المقابلة بأنهم أخذوها في سيارة إسعاف قبل ثلاثة أيام ، أجل ، هذا صحيح ، أتعرفين أين هي ، في أي مستشفى ، أو في بيت أحد أقربائها .وقبل أن يتاح الوقت لأم الطفلة للرد ، سأل صوت رجل من الداخل ، من هناك ، فأدارت رأسها ، إنه شخص يسأل عن سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ، ثم نظرت إلى دون جوزيه وقالت ، لا ، لا نعرف عنها أي شيء . فخفض دون جوزيه صوته وسألها ، ألم تتعرفي عليّ ، ترددت قليلاً ، آه ، بلى ، قالت ذلك هامسة ، وأغلقت الباب ببطء .

في الشارع ، استوقف دون جوزيه سيارة أجرة ، أوصلني إلى المحفوظات ، قال ذلك للسائق وهو ساه . كان يفضل الذهاب ماشياً لكي يوفر قليلاً من النقود ولكي ينهي النهار مثلما بدأه ، لكن الإنهاك لم يعد يسمح له بأن يخطو خطوة أخرى . أو هذا ما كان يظنه هو . وعندما قال له السائق ،لقد وصلنا ،انتبه دون جوزيه إلى أنه ليس أمام بيته ، وإنما أمام بوابة المحفوظات . لم يكن هناك ما يستحق التوضيح للرجل بأن عليه أن يدور حول الساحة ويدخل في الشارع الجانبي ، لأنه لن يحتاج لأن يمشي أكثر من خمسين متراً . دفع آخر ما تبقى معه من النقود وغادر

السيارة ، وعندما وطئت قدماه الرصيف ، رفع رأسه ورأى أن نوافذ المحفوظات مضاءة . فكر ، مرة أخرى ، وسرعان ما تلاشى قلقه على سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي وأم الطفلة الرضيعة ، فالمشكلة الآن في العثور على تبرير يقدمه في اليوم التالي . انعطف عند الناصية ، وهناك كان بيته ، واطئاً ، أشبه بطلل ، ملتصقاً بجدار البناء العالي الذي يبدو مستعداً لسحقه . عندئذ ضغطت أصابع همجية على قلب دون جوزيه . هناك نور في بيته . كان متأكداً من أنه أطفأ النور قبل أن يخرج ، ولكن ، مع الأخذ في الحسبان الاضطراب الذي يسيطر على رأسه منذ عدة أيام ، فإنه سيتقبل الاعتقاد بأنه قد نسيه ، لولا ذلك الضوء الآخر ، ضوء المحفوظات ، النوافذ الخمس المشعة بنور قوي . أدخل المفتاح في الباب ، وكان يعرف من سيرى ، ولكنه توقف عند العتبة ، كما لو أن التقاليد الاجتماعية تفرض عليه أن يبدي مفاجأته . كان الرئيس جالساً إلى الطاولة ، وكانت أمامه بعض الأوراق المصفوفة بعناية . لم يكن دون جوزيه بحاجة إلى الاقتراب ليعرف ما هي ، إنها وثيقتا التكليف المزيفتان ، وبطاقات المرأة المجهولة المدرسية ، ودفتر الملاحظات ، وحافظة ملف المحفوظات الذي يضم الوثائق الرسمية . قال له الرئيس ، ادخل ، فالبيت بيتك . أغلق الكاتب الباب ، وتقدم باتجاه المنضدة وتوقف . لم يتكلم ، كان يشعر في رأسه بدوامة سائلة تذوب فيها جميع الأفكار . اجلس ، لقد قلتُ لكَ إنك في بيتك . انتبه دون جوزيه إلى وجود مفتاح مثل مفتاحه فوق البطاقات المدرسية . سأله المدير ، هل تنظر إلى المفتاح ، ثم أضاف بهدوء ، لا تظنه نسخة مزيفة ، فبيوت الموظفين ، عندما كانت موجودة ، كان لها مفتاحان دائماً لباب الاتصال الداخلي ، أحدهما لاستخدام ساكن البيت بالطبع ، والآخر يبقى لدى المحفوظات ، كل شيء منسجم كما ترى ، باستثناء أنكَ دخلت إلى هنا دون إذن مني ، تمكن دون جوزيه من قول ذلك ، فقال المدير ، لستُ بحاجة إلى إذن منك ، فمالك المفتاح هو مالك البيت ، ويمكننا القول إننا كلينا نملك هذا البيت ، مثلما تشعر أنت بأنك مالك المحفوظات وتُخرج من أرشيفها وثائق رسمية ، يمكنني أن أقدم تفسيراً ، لا حاجة إلى ذلك ، لقد تابعتُ

نشاطاتك بانتظام ، كما أن دفتر ملاحظاتك ساعدني كثيراً ، وأنا أنتهز هذه الفرصة لأهنئك على صياغاتك الجيدة وملكتك اللغوية ، سأتقدم غداً باستقالتي ، وأنا لن أقبلها . نظر إليه دون جوزيه مذهولاً ، لن تقبلها ،لا يا سيدي ،لن أقبلها ، ولماذا ، إذا كان بإمكاني السؤال ، يمكنك بالطبع ، بعد أن صرتُ مستعداً لأن أكون شريكاً متواطئاً في أعمالك غير النظامية ، لستُ أفهم . تناول المدير ملف المرأة المجهولة ، ثم قال ، سوف تفهم ، ولكن أخبرني قبل ذلك بما حدث في المقبرة ، فروايتك تتوقف عند المحادثة مع الكاتب هناك ، سيتطلب إخبارك بذلك وقتاً طويلاً ، قله بكلمات موجزة ، حتى تكتمل اللوحة لدي ، اجتزتُ المقبرة العامة مشياً على الأقدام حتى منطقة المنتحرين ، ونمتُ تحت شجرة زيتون ، وفي صباح اليوم التالي ، عندما استيقظت ، وجدتُ نفسي وسط قطيع من الأغنام ، وعرفتُ بعد ذلك أن الراعي يتسلى باستبدال أرقام القبور قبل وضع اللوحات الحجرية عليها ، ولماذا يفعل ذلك ، من الصعب شرح الأمر ، فكل ذلك يدور حول معرفة أين هم فعلاً الأشخاص الذين نبحث عنهم ، وهو يعتقد بأننا لن نعرف ذلك قط ، مثل بحثك عن تلك التي أسميتها المرأة المجهولة ، أجل يا سيدي ، وماذا فعلتَ اليوم ، ذهبتُ إلى المدرسة التي كانت معلمة فيها ، وذهبت إلى البيت الذي عاشت فيه ، وهل اكتشفتَ شيئاً ، لا يا سيدي ، أظن أنني لم أكن أريد اكتشاف أي شيء . فتح المدير الملف ، أخرج البطاقة التي جاءت ملتصقة ببطاقات الشخصيات المشهورة الخمس الأخيرة التي اهتم بها دون جوزيه ، وسأله ، أتعرف ما الذي كنتُ سأفعله لو أنني مكانك ، لا يا سيدي ، أتعرف ما المحصلة المنطقية لكل ما فعلته حتى هذه اللحظة ، لا يا سيدي ، أن تُعدَّ لهذه المرأة بطاقة جديدة ، مثل البطاقة القديمة ، تضم كل المعلومات نفسها ، ولكن دون تاريخ الوفاة ، وبعد ذلك ، بعد ذلك تعيد وضعها في خزانة بطاقات الأحياء وكأنها لم تمت ، سيكون ذلك تزويراً ، أجل ،سيكون تزويراً، ولكن لن يكون لأي شيء مما قلناه ، أنا وأنت ، من معنى إذا لم نقترف هذا التزوير ، لم أتوصل إلى فهمك . اتكأ المدير على الكرسي ، مرّ بيده ببطء على وجهه ،ثم سأل ، هل تتذكر ما قلته هناك في الداخل يوم

الجمعة ، عندما جئتَ إلى العمل دون حلاقة ذقنك ، أجل يا سيدي ، تتذكر كل شيء ، كل شيء ، أنت تتذكر إذن أنني أشرت إلى بعض الأحداث التي لولاها ما كنتُ توصلتُ أبداً إلى فهم عبثية فصل الأموات عن الأحياء ، أجل يا سيدي ، هل أنا بحاجة إلى أن أخبرك بالأحداث التي أشرت إليها ، لا يا سيدي .

نهض المدير ، سأترك لك المفتاح هنا ، فأنا لا أنوي أن أعود إلى استخدامه ، ثم أضاف دون أن يتيح لدون جوزيه المجال للتكلم ، مازالت هناك مسألة تحتاج إلى حلّ ، أية مسألة يا سيدي ، ملف امرأتك المجهولة تنقصه شهادة الوفاة ، لم أستطع العثور عليها ، لا بد أنها بقيت في عمق الأرشيف ، أو أنها وقعت مني في الطريق ، هذه المرأة ستبقى ميتة ما لم تجدها ، وستبقى ميتة حتى لو وجدتُها ، فقال المدير ، إلا إذا أتلفت الوثيقة . أدار ظهره لهذه الكلمات ، وعلى الفور سُمعت ضجة إغلاق باب المحفوظات . بقي دون جوزيه واقفاً في وسط البيت . لم يكن بحاجة إلى ملء بطاقة جديدة ، لأن النسخة التي استنسخها كانت في الملف . وكان لا بد ، أجل ، لا بد من تمزيق أو إحراق النسخة الأصلية حيث دُوّن تاريخ الوفاة . كما أن شهادة الوفاة ما تزال هناك في الداخل . اندفع دون جوزيه إلى المحفوظات ، ذهب إلى طاولة الرئيس ، فتح الدرج حيث ينتظره المصباح وخيط آريان . ربط أحد طرفي الخيط بكاحله وتقدم نحو الظلام .

كل الأسماء

موظف مغمور في الإدارة العامة للسجل المدني يتسلل ليلا إلى مبناها ليسلى نفسه بقراءة ملفات الشخصيات اللامعة والشهيرة في المجتمع والتطفل على أسرارها الخاصة إلى أن يعثر على اسم امرأة مجهولة، تقوده قراءة ملفها إلى مغامرة مثيرة.

جوزيه ساراماغو

يعتبر الكاتب البرتغالي، جوزيه ساراماجو، من أشهر كتاب البرتغال. ولد ساراماجو عام ١٩٢٢ في منطقة أزيناجا وسط البرتغال، لعائلة من فقراء المزارعين. بدأ حياته صانع أقفال ثم صحفيا ومترجما قبل أن يكرس وقته كله للأدب. أصدر روايته الأولى «أرض الخطيئة» عام ١٩٤٧، وتوقف عن الكتابة ما يقارب العشرين عاما، ليصدر عام ١٩٦٦ ديوانه الشعري الأول «قصائد محتملة».



أصدر نحو عشرين كتابا ويعتبره النقاد واحدا من أهم الكتاب في البرتغال بفضل رواياته المتعددة الأصوات، والتي تستعيد التاريخ البرتغالي بتهكم دقيق قريب من الأسلوب الذي اعتمده «بودلير». ساراماجو عضو في الحزب الشيوعي البرتغالي منذ عام ١٩٤٩. ويعيش حاليا في جزر الكناري.

من أشهر رواياته «وجيز الرسم والخط» ١٩٧٦، «ليفنتادو دوتشادرا» ١٩٨٠، «الإله الأكتع» ١٩٨٢، «عام موت ريكاردو ريس» ١٩٨٤، «الطوف البحري» ١٩٨٦، «قصة حصار لشبونة» ١٩٨٩، «الانجيل بحسب يسوع المسيح» ١٩٩٢، «العمى» ١٩٩٥. حصل ساراماجو على جائزة نادي القلم الدولي عام ١٩٨٢، وعلى جائزة كاموس البرتغالية عام ١٩٩٥. وفي أكتوبر ١٩٩٨ حصل على جائزة نوبل للآداب.

الكتاب للجميع

سلسلة كتب شهرية، توزع مجانا مع ثماني صحف عربية، تتيح للقارئ تكوين مكتبة ذات مساحة منفتحة على مختلف فروع المعرفة.. بكلفة لا تثقل عليه. كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع تتنازل عن حقوقها لصالح القارئ وهي:

القاهرة مصر

القبس الكويت

الأيام البحرين

الحياة السعودية

الثورة سورية

البيان الإمارات

السفير لبنان

